زهور
٤

روايات مصرية للجيب

الدموع الباردة

Looloo
www.dvd4arab.com

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
١٠ شارع كامل صدقي بالفجالة ـ القاهرة ـ ت ٩٠٨٤٥٥

الدموع الباردة

أسدلت الأستار وأطفئت الشموع
على نبض قلب ضاع بين الضلوع
صار الكون قفراً يغشاه الخنوع
فيه الأم ثكلى والطفل يجوع
وراح العقل يسأل فى صمت مسموع
هل رأى الحب يوماً للثلج دموع ؟

(نبيل)

١ ـ النجمة ..

« انظروا .. إنها (نهال حمدى) نجمة السينما المعروفة » .

استقبلت (نهال) ذلك الهتاف ، الذى تصاعد من رواد ذلك النادى الشهير فى قلب الإسكندرية بفرحة غامرة ، ارتجف لها جسدها بأكمله ، فأسرعت ترسم فوق شفتيها الجميلتين تلك الابتسامة الديبلوماسية ، التى قضت ساعات طوالا وهى تتمرن على أدائها أمام المرآة ، ورفعت يدها بأسلوب مسرحى لترد تحية جمهورها العريض ، الذى تدافع من كل صوب ، يريد إلقاء نظرة على تلك الممثلة الشابة الفاتنة ، التى امتلأت الصحف والمجلات الفنية بصورها وأخبارها ، حتى أنهم أهملوا طاقم التصوير المصاحب لها ، والمخرج المشهور (حاتم فوزى) ، الذى يرافقها ، والذى تجاهل الجمهور بدوره ، وانهمك فى توزيع أوامره على طاقم التصوير ، الذى تشاغل فى إعداد آلاته ومعداته ، استعداداً لتصوير ذلك المشهد الجديد من فيلم (دموع القمر) ، الذى تقوم فيه (نهال حمدى) بدور البطولة أمام النجم الشاب (أشرف خالد) ..

لم يستطع (أشرف) إخفـاء غيرته وهو يتأمل ذلك الحشد الهائل ، الذى التف حول (نهال) ، فى حين لم يحظ هـو إلا باهتمام بعض مراهقـات النـادى ، اللائى جذبتهن وسامته الواضحة ، وقامته الممشوقة ...

أما (نهال) ، فقد ارتجف قلبها من شدة سعادتها وهى تنقل بصرها بين العيون المبهورة بجمالها ، والشفاه الهامسة بالإعجاب نحوها ..

كانت (نهال) حقـًا فاتنة ..

كانت من ذلك النوع من الفتيـات ، اللائى يشعر المرء فى تكوينهن بإبداع الخالق (جل شأنه) ..

وجهها الوردى الصافى أقرب إلى الاستدارة ، ممتلئ فى اعتدال ، تسرى فى عروقه دماء الحيوية والنشاط ..

شعرها الأشقر الناعم يزين رأسها كتاج من الذهب ، وينسدل على كتفيها فى ليونة ونعومة ، على حين تتراقص خصلاته على جبهتها مع هبات النسيم ، فتبدو كبحر متماوج براق ..

أنفهـا دقيق رقيق صـغير ، ينبت من بين حاجبيهـا الرفيعين ، ويهبط مستقيماً أنيقاً ..

شفتاها متناقضتان فى جاذبية ، فالعليا رقيقة مائلة ، والسفلى ممتلئة هابطة ، مما يجعلهما دوماً منفرجتين فى هدوء ، وفتنة ...

أما عيناها فهما سر جمالها ، الذى فتن الملايين منـذ دورها الأول الصغير فى فيلم (المراهقة) ..

عيناها متسعتان براقتان ، تحتـلان الجزء الأكبر من نصف وجهها العلوى ..

تظللهما رموش سوداء طويلة ، كمظلة حانية كثيفة .. لونهما عجيب فتان ، يحار المرء فى تصنيفه ..

هو مزيج من الأزرق السماوى ، والأخضر الزرعى ، والأصفر الذهبى .

ولو أنك دققت النظر فى عينيها طويلا لخيل إليك أن لونهما يتنقل باستمرار ما بين تلك الألوان الثلاثة ...

كانت عيناها هى مدخلها إلى عالم السينما ..

ما زالت تذكر ذلك اليوم ، الذى رآها فيه (حاتم فوزى) على شاطئ الإسكندرية ..

كان ذلك منذ عامين فقط ..

يومها جذبته عيناها فى شدة ، حتى أنه لم يستطع رفع عينيه عنهما ...

شعرت يومئذ بالخجل ، حتى أنها انكمشت فى مقعدها إلى جوار والدتها ، وحاولت أن تفر من نظراته الفاحصة ، وأدهشها أنه تقدم من والدتها فى جرأة ، وقدم لها نفسه ..

لم تكن هى تحتاج إلى هذا التقديم ـ حينذاك ـ فقد كانت تعرفه جيداً من مطالعتها للمجلات الفنية ، التى كثيراً ما تنشر صورته ، ولكنها ارتجفت ، ورقص قلبها طرباً ، حينما سمعته يسأل والدتها أن تسمح له بتقديم (نهال) إلى السينما ..

عارضت والدتها الأمر بشدة فى ذلك الحين ـ فلم يكن لديها فى الدنيا سوى (نهال) ، بعد أن فقدت زوجها منذ خمس سنوات ، وكانت (نهال) فى السنة الأولى بكلية الآداب ، جامعة الإسكندرية ، ولكن موهبتها فى التمثيل عاونتها على إقناع والدتها بمزيج من الرجاء والدموع ..

وأخيراً وافقت الوالدة فى تحفظ ، وحصلت (نهال) على أول أدوارها فى السينما ...

دور صغير فى فيلم من إخراج (حاتم فوزى) ...

يومها كان دورها صغيراً .. دور مراهقة تخلى عنها حبيبها بعد سيل من الوعود البراقة ..

لم تكد تؤدى ذلك المشهد الحزين ، حتى وجدت نفسها تنفجر باكية ، وسالت الدموع من عينيها غزيرة ، وبدا المشهد واقعيًّا إلى درجة كبيرة ..

فوجئت بعد انتهاء دورها بعاصفة من التصفيق داخل الاستوديو ، وهنأها (حاتم) بنفسه ، وقال إن هذا المشهد سيقفز بها إلى النجومية ، ولم يكتف بالقول ، بل أسند إليها البطولة الثانية فى فيلمه التالى (بحر الأحزان) ..

بعد ذلك الفيلم أصبحت (نهال) حديث الناس فى كل مكان ..

كان ذلك المزيج من جمال عينيها ، وغزارة دموعها يذيب أشد القلوب قساوة ..

امتلأت صفحات الصحف والمجلات الفنية بصورها ، وبدأ الجمهور يتابع أنباءها فى شغف ..

بات الآلاف يحلمون بعيونها الرائعة .. ذرفت نساء مصر الدموع معها ..

أطلق عليها أحد النقاد لقب (صاحبة الدموع الحقيقية) ..

ارتبطت شهرتها بأنها الوحيدة التى تذرف دموعاً حقيقية فى كل مشاهدها الباكية ..

وأصبحت نجمة ..

أصبحت الحلم الأول فى خيال الشباب ، والمثل الأعلى للشابات ..

أصبحت رمز الجمال والفتنة والرقة ..

لم تكن تحلم فى السابق بدخول مثل هذا النادى الراق ، وهاهى ذى تعبر بوابته فى موكب يفوق أساطير (كليوباترا) ..

وبدأ تصوير المشهد ...

اعتذرت لمعجبيها فى رقة ، وتوجهت فى خطوات بطيئة مدروسة إلى منطقة التصوير ، وساد صمت عميق بين المشاهدين حينما أطلق المخرج (حاتم فوزى) إشارة البدء ..

وانطلقت (نهال) ..

انطلقت تؤدى دورها فى مهارة واقتدار ..

لا يمكن لأحد أن ينكر أنها ممثلة موهوبة ..

لقد تقمصت الدور ، واندمجت فيه حتى أعماقها ..

نسيت كل العيون التى تراقبها فى انبهار ..

نسيت آلات التصوير التى تواجهها ..

نسيت حتى أنها (نهال حمدى) ..

أصبحت بطلة فيلم (دموع القمر) ..

كان أداؤها رائعاً ، حتى أن (حاتم) ابتسم فى سعادة ، وهو يشكر الظروف ، التى قادته لاكتشاف هذه النجمة الموهوبة ..

(أشرف) نفسه اعترف بموهبتها وقدرتها ، وتلاشت غيرته مع هذا الاعتراف ، بل حمد الله — سبحانه وتعالى — على أنه استطاع الفوز بدور البطولة أمامها ..

كان ذلك المشهد ينتهى بالبكاء ..

وعندما وصلت (نهال) إلى تلك النقطة كانت قد بلغت ذروة التقمص والانفعال ، فتفجرت الدموع من عينيها ، وانهارت أمام قدمى (أشرف) كما يقتضى دورها ..

تصور (حاتم) لحظتها أن الدموع تنتقل بالعدوى ،

فقد رأى الدموع تسيل من عيون المشاهدين وهم يرقبون ذلك المشهد الأخير فى صمت ..

رفع (حاتم) يده ، وهتف بلهجته الرصينة :

– (ستوب) .. هذه لقطة رائعة ..

لم يكد ينتهى من عبارته ، حتى ضج النادى بهتاف المعجبين ، الذين التهبت أكفهم بالتصفيق وهم يتدافعون لتهنئة نجمتهم المفضلة ..

وجد (أشرف) نفسه وحيداً هذه المرة ، حتى من مراهقات النادى ، فلقد تألقت (نهال) فى أداء دورها ، حتى بدا دوره أمامها شاحباً جافًّا ، فعادت الغيرة تنهش صدره ، وتعتصر قلبه بين ضلوعه ..

أما (نهال) فقد تلاشى الحزن المرتسم على ملامحها فى سرعة ، وحلت محله تلك الابتسامة المدربة ، التى تستقبل بها معجبيها ..

جفت دموعها فى سرعة وكأنها لم تكن ، وتألقت عيناها الجميلتان ببريق السعادة ...

انتقلت عيناها فى نشوة بين ابتسامات الإعجاب والفرح على شفاه معجبيها ..

كانت هذه سعادتها الكبرى .. أن تلمح الإعجاب فى عيون الآخرين ..

وفجأة توقفت نظراتها ..

توقفت عند ابتسامة لا تحمل شيئاً من الإعجاب ..

ابتسامة تحمل السخرية فقط ..

اجتاحها الغضب على نحو لم يسبق له مثيل ..

لم تعد ترى العشرات من ابتسامات الإعجاب حولها ..

لم تعد ترى سوى تلك الابتسامة الساخرة ...

خيل إليها أنها تسمع تلك الابتسامة ، وتشمها ، وتتنفسها ..

شعرت بصدرها يضيق مع تلك السخرية ..

رفعت عينيها فى غضب إلى صاحب الابتسامة وهى تتصوره شابًّا عابثاً مغروراً ...

أدهشها أن صاحب الابتسامة الساخرة رجل وقور ، وسيم الملامح ، فى أوائل الأربعينات من عمره ، له شعر ناعم أنيق ، وإن بدأ الصلع يزحف إلى فوديه مع قليل من الشعيرات البيضاء المتناثرة ، وكانت له عينان عميقتان ، ونظرات نافذة تشف عن قوة شخصيته ..

تساءلت فى غضب عمن يكون ذلك الرجل الذى يسخر من أدائها ، ولم يطل تساؤلها ، فقد رأت (حاتم) يهرع نحو الرجل فى سعادة ، ويصافحه فى حرارة ، قائلا :

– كيف حالك يا (فؤاد) ؟.. مضت فترة طويلة منذ آخر لقاء لنا .

لم تسمع الكلمات الخافتة التى أجاب بها ذلك المدعو (فؤاد) تحية (حاتم) ، ولكنها رأت (حاتم) يجذبه إليها ، ويقول وهو يشير نحوها :

– هذه (نهال حمدى) .. تعرفها بالطبع .

ارتجف جسدها على الرغم منها أمام نظراته الفاحصة العميقة ، ولكنها تماسكت فى كبرياء ، ورسمت ابتسامة مغرورة على شفتيها ، فمن هذا الذى لم يسمع عن (نهال حمدى) ؟!

تحطم كبرياؤها دفعة واحدة حينما أجاب (فؤاد) فى هدوء ورصانة :

– كلا .. إنها المرة الأولى التى أسمع فيها هذا الاسم .

* * *

٢ ـ اللقاء ..

ارتفع رنين جرس باب منزل والدة (نهال) ، فى ذلك الحى الراقى من أحياء الإسكندرية ، وأسرعت الوالدة تفتح الباب ، واغتصبت ابتسامة تنم عن عدم الرضا ، وهى تستقبل الطارق ، قائلة :

– مرحباً يا أستاذ (حاتم) .. ستكون (نهال) مستعدة للخروج بعد لحظات .

كان (حاتم) يعلم أن والدة (نهال) لم تستطع حتى الآن استساغة عمل ابنتها فى السينما ، وكان يعلم أنها تعده المسئول عن ذلك ، ولكن هذا لم يمنعه من الدخول ، والاستئثار بأفضل مقاعد الردهة وهو يقول :

– ألم تنته من ارتداء ثيابها بعد ؟

جلست على المقعد المقابل له وهى تقول :

– لقد استغرقت وقتاً طويلا فى زينتها هذا المساء ، وهى تبدو شديدة العصبية بشكل لم أعهده فيها من قبل .

هز كتفيه فى لامبالاة كعادته ، وقال :

– إنها شديدة الحساسية ، ولقد أغضبها أن صديقاً لى لم يسمع باسمها من قبل .

غمغمت الوالدة ، وكأنها تشفق على حال ابنتها :

– ليت أحداً لم يسمع باسمها مطلقاً .

عقد (حاتم) حاجبيه ، وقال فى ضيق :

– إن ابنتك تخطو نحو الشهرة بخطوات واسعة ياسيدتى ، إننى أتوقع لها أن تصبح نجمة عالمية بعد سنوات قليلة .

مطّت الأم شفتيها ، وكأنها تعلن رفضها لهذا القول ، فمال (حاتم) نحوها ، وقال :

– لِمَ يضايقك عمل ابنتك فى السينما يا سيدتى ؟

تردّدت الوالدة لحظة ، وكأنها تخشى الخوض فى هذا الأمر ، ثم بدا وكأنها قد قررت أن تلقى كل العبء عن كاهلها فجأة ، فقد اندفعت تقول :

– إنها لم تعد كما كانت منذ اقتحمت هذا المجال السخيف ، لقد فقدت براءتها وبساطتها ، لم تعد ذلك الكائن الذى أنجبته منذ ثلاثة وعشرين عاماً ، إنها تقضى نصف وقت فراغها المحدود فى التدرب على الابتسام

والحديث ، وتقضى النصف الآخر فى مطالعة ما ينشر عنها فى الصحف والمجلات ..

حملت لهجتها مرارة قاسية وهى تستطرد :

– إنها لم تعد (نهال) القديمة يا سيد (حاتم) ، لقد أصبحت كائناً مختلفاً ، حتى أننى أتساءل فى بعض الأحيان عما إذا كانت ابنتى حقاً .

بدا الضجر واضحاً فى قسمات (حاتم) وهو يلوح بكفه ، ويشيح بوجهه ، قائلاً :

– إنه بريق الشهرة يا سيدتى .

قالت الأم فى حنَق :

– لعن الله هذا البريق الزائف .

ثم انحنت نحو (حاتم) ، وأردفت فى حدة :

– يعلم الله أننى أتمنى وأدعو الله — سبحانه وتعالى — فى كل مساء أن ينتزعها من هذا العمل .

– أماه ! !

انطلقت تلك الصيحة من بين شفتى (نهال) ، تحمل مزيجاً من الغضب والعتاب والاستنكار ، والتفت (حاتم) فى حركة حادة إلى حيث تقف (نهال) ، وتألق فى عينيه

بريق الإعجاب حينما وقع بصره عليها فى ثوبها الأحمر المتألق ، الذى أضفى على جمالها الفتان شكلا يوحى بالثورة ، وأدهشه رد الفعل عند والدتها ، حتى أنه تساءل فى أعماق نفسه عن طبيعة العلاقة بينهما ..

لقد انكمشت الأم فى مقعدها ، وأطبقت شفتيها وهى تنظر إلى ابنتها نظرات تحمل الاعتذار والتراجع ..

اختفت نظرات الغضب من عينى (نهال) فى سرعة عجيبة ، وهى تلتفت إلى (حاتم) ، قائلة فى اقتضاب :

ـ هيَّا بنا .

ظلت صامتة شاردة طوال الطريق إلى الفندق الفاخر ، حيث دعاها (حاتم) لتناول العشاء ، إلى أن سألها دون أن يرفع عينيه عن الطريق ، وهو يقود سيارته :

ـ ماذا أصابك ؟ .. إنك تبدين شديدة التوتر ، حتى أننا لم ننجح فى تصوير مشهد واحد بعد المشهد الأول .

قالت فى ضجر :

ـ إنه صديقك السخيف هذا .

عقد حاجبيه ، وكأنه يحاول أن يتذكر وهو يقول :

ـ أى صديق هذا ؟

أجابته فى حدة :

ـ ذلك الذى دعوته (فؤاد) .

أطلق صيحة خافتة ، وكأنه تذكر الأمر ، وقال ضاحكاً :

ـ أتقصدين الدكتور (فؤاد صادق) .. إنه صديق قديم ، هل ضايقتك كلمته ؟

تجاهلت سؤاله وهى تقول فى ضجر :

ـ أهو طبيب ؟ !

هتف فى دهشة :

ـ ألم تسمعى فى حياتك عن (فؤاد صادق) ؟ .. إنه أشهر طبيب للأمراض النفسية فى مصر قاطبة ، إن نصف زبائن عيادته فى الوسط السينمائى .

قلبت شفتيها فى امتعاض مصطنع وهى تقول :

ـ طبيب أمراض نفسية ؟ ! .. هذا يفسر تركيبته النفسية المعقدة إذن .

ظهر الاستياء على وجه (حاتم) وهو يقول :

ـ يبدو أنك أسأت فهم (فؤاد) ، إنه رجل جم التهذيب .

صاحت فى غضب :

ـ لماذا تعمَّد إهانتى إذن ؟
أجابها (حاتم) وهو يوقف سيارته أمام الفندق الفخم :
ـ محال أن يحاول ذلك ، إننى أعرفه جيداً حتى أننى ..
بتر (حاتم) عبارته فجأة ، على نحو أثار ريبتها ، فسألته فى حدة :
ـ حتى أنك ماذا ؟
ابتسم فى خجل وهو يجيب :
ـ حتى أننى دعوته لتناول العشاء معنا ..
بذلت (نهال) أقصى طاقتها ؛ لتحافظ على هدوئها بعد هذا الخبر المفاجئ ...
كان عليها أن تعبر قاعة الفندق الفخم باسمة أمام رُوَّاده ، مهما كانت الأسباب ..
أسعدها أن عيون رُوَّاد الفندق جميعهم قد التفتوا إليها فى إعجاب ، وهى تعبر القاعة فى خطوات مدروسة ، وابتسامتها الجذَّابة تتألق فوق شفتيها ..
وقع بصرها على الدكتور (فؤاد) ، جالساً أمام المائدة التى تتقدم إليها مع (حاتم) ..
كانت شفتاه تحملان نفس الابتسامة الساخرة ...

نفس الابتسامة التى تثير عصبيتها وغضبها ..
لم يحاول أن ينهض حتى لاستقبالها ، بل انتظر حتى أصبحت على قيد خطوات منه ، فقام يصافحها فى هدوء ، وجذب المقعد الذى تنوى الجلوس عليه ، كما يفعل أى رجل مهذب ، ثم تجاهل وجودها تماماً وهو يستعيد مع (حاتم) ذكرياتهما القديمة ..
انتابها حنَق شديد ، وسيطر عليها شعور بالإهمال ...
تصورت نفسها تجلس فى ركن منسىّ ، على الرغم من عشرات العيون التى تتطلع إليها فى لهفة و إعجاب ..
لم تعد تشعر بكل هذا الإعجاب . ..
أصبحت تشعر فقط بالرجل الذى أهمل وجود أشهر نجمة سينمائية فى مصر ..
سيطر عليها الغضب ، وانتابتها رغبة قوية فى الإساءة إليه ، وساعدتها مهارتها وموهبتها التمثيلية ، وتقمصت دور الفتاة المغرورة وهى تمط شفتيها فى ازدراء ، قائلة :
ـ أنت إذن طبيب نفسى ؟ !
التفت الدكتور (فؤاد) فى هدوء ، ولم يكد يلمح الازدراء فى شفتيها ، حتى ابتسم وقال فى بساطة :

– هذا صحيح .

ضايقها أنها لم تنجح فى إثارة غضبه ، فقالت فى لهجة أضفت عليها الكثير من السخرية :

– يقولون إن الأطباء النفسانيين هم أكثر الناس إصابة بالعقد النفسية .

اتسعت ابتسامته وهو يقول :

– ربَّما .

كاد الغضب يمزق أعماقها ... من أى شىء صُنِعَ هذا الرجل ؟ ..

أمن الثلج ؟! ..

نعم .. إنه الثلج ولا ريب ، فالحرارة لا تنبعث أبداً فى الثلوج ، وإلا لحولت إلى ماء ..

تضاعفت رغبتها فى إثارة غضبه ...

تصورت أنها بذلك تهدم الرجل الوحيد الذى سخر منها ..

عادت بمقعدها إلى الوراء فى شكل يوحى بالغرور ، وهى تسأله :

– هل تعالج نجوم السينما حقًّا ؟

شعر (حاتم) بالحرج من الطريقة ، التى توجّه (نهال) أسئلتها بها إلى (فؤاد) ...

كان يعلم هدفها ..

كان يعرف كيف تفكر ، وفيم تفكر ..

كان يعلم أنها تحاول الانتقام من الرجل الذى سخر منها .. ولكنه لم يحاول أن يتدخل ..

تركها تفرغ غضبها ، حتى يمكنها أداء مشاهد الغد فى براعة ...

ولكن (فؤاد) لم يسمح لها بذلك ..

بدا شديد الهدوء والرصانة وهو يقول :

– لا يمكننا إطلاق لفظ المعالجة على علاقة الطبيب النفسى بزواره ، فهو لا يعالجهم فى الواقع ، ولكنه يحاول معاونتهم على كشف ما يعانونه ، والسيطرة عليه .

ابتسمت فى سخرية ، وقالت :

– يا له من أسلوب فلسفى ! ! وما النوع السائد من الأمراض النفسية فى الوسط الفنى يا دكتور ... ؟

توقفت لحظة عن متابعة عبارتها ، ومالت نحوه تسأله فى أسلوب مصطنع :

– معذرة .. لقد نسيت الاسم .

كادت ابتسامته الساخرة تمزقها هذه المرة ..

كان من الواضح أنه قد فهم ما ترمى إليه ، عندما تحاول التظاهر بنسيان اسمه ..

ولكنه لم يدع لها الفرصة للانتصار ..

ابتسم فى هدوء يحمل بعض السخرية ، وهو يقول :

– (فؤاد) .. (فؤاد صادق) .

قالت من بين أسنانها فى غضب :

– حسناً يادكتور (فؤاد).. إنك لم تجب عن سؤالى بعد.

ازداد نصيب السخرية فى ابتسامته وهو يقول :

– لا يمكننى ذلك للأسف ، فلا يوجد طبيب شريف يفضح أسرار مرضاه ..

سألته فى غضب عبَّر عما يعتمل فى نفسها :

– فلنعدِّل السؤال إذن ، هل تظننى مصابة بعقدة نفسية ؟

أذهلها أن أجابها فى هدوء :

– بالطبع ..

عقدت حاجبيها فى غضب ، وارتجف جسدها فى ثورة ، وشعر (حاتم) بالخطر ، فقال فى ارتباك :

– دعونا نؤجل هذا الحديث و ...

بدا وكأن (نهال) لم تستمع إليه ، وهى تسأل الدكتور (فؤاد) فى حدة :

– أى نوع من العقد النفسية تظننى أحمل ؟

نفذت إجابته إلى أعماقها ، وفجرت ثورتها ،عندما قال فى هدوء عجيب :

– الهستيريا :

٣ – التحليل ..

قاد (حاتم) السيارة فى صمت ، فى طريق العودة إلى منزل (نهال) ، وإن نمّت ملامحه عن غضب هائل يعربد فى أعماقه ، ولم تحاول (نهال) بدورها إدارة الحديث ، كانت هى الأخرى تفضّل الصمت ..

غادرت السيارة فى عصبية ، عندما توقفت أمـــام منزلها ، وكادت تنسى تحية (حاتم) ، لولا أنه قال فى حنق :

– لقد كنت شديدة السخافة هذه الليلة ، وتصرفت كطفلة صغيرة عنيدة .

لوحت بكفها فى غضب ، وصاحت :

– كفى يا (حاتم) ، إننى لا أنوى التحدث فى هذا الأمر ..

احتقن وجهه لحظة ، ثم انطلق بسيارته مبتعداً دون أن يلقى عليها تحية المساء ....

لم تنتبه هى إلى ذلك ، وأسرعت تصـعد إلى منزل والدتها فى خطوات غاضبة ..

استقبلتها والدتها قائلة :

– لماذا تأخرت إلى هذه الساعة ؟

صرخت فى غضب :

– إننى لم أعد صغيرة يا أماه .

ظهر الحنق على وجـه الأم ، ولكنها لم تعترض .. تركت ابنتها تسرع إلى حجرة نومها ، وتغلق الباب خلفها، ثم رفعت رأسها إلى السماء تدعو الله – عز وجل – أن يبعد ابنتها عن هذا الطريق ..

خلعت (نهال) ثوبها الأحمر البرّاق ، وارتدت منامتها على عجل ، وألقت جسدها فوق الفراش ..

لم يكن الغضب قد فارقها بعد من حديثها مع الدكتور (فؤاد) ..

استعادت حديثهما كله وهى تحدّق فى سقف الحجرة بنظرات شاردة ...

تذكرت كيف أصابها الغضب حينما اتهمها بالهستيرية.. وقتها أجابته غاضبة :

– هل تهوى إهانة الناس ؟

أجابها فى هدوء :

– هذا آخر ما أحاوله ، لقد سألتنى سؤالا ، وأجبتك عنه إجابة لا تتضمن رأيى الشخصى ، وإنما هى تحليل علمى لأسلوب حياتك .

صاحت فى غضب :

– تحليل علمى ؟ !

ثم تنبهت إلى وجودها فى قاعة الطعام فى الفندق ، وتذكرت أن رواده يختلسون النظر والسمع إليها ، فعادت تخفض من صوتها ، وتقول :

– أى تحليل هذا الذى تستند إليه فى اتهامك ؟

صاح (حاتم) فى ضيق :

– كفى يا (نهال) .

ولكن الدكتور (فؤاد) تأمل ملامحها لحظة ، على نحو خيل إليها أنه يحمل الكثير من الإشفاق ، ثم قال فى هدوء :

– هذا ليس اتهاماً ، ولكن الهستيريا من الأمراض النفسية الشائعة ، التى تصيب تسعين فى المائة من المشاهير ، وهى ليست نوعاً من الجنون كما يظن البعض ، ولكنها رغبة تتملك المرء فى استقطاب نظرات الإعجاب والاهتمام .

لوَّحت بكفها وهى تقول فى حنق :

– لن أصدق حرفاً واحداً .

بدا التردد على وجهه لحظة ، ثم قال :

– هل لديك تفسير إذن لارتدائك ثوباً أحمر اللون ، له بريق ملفت للأنظار؟ .. وهل لديك ما يبرر صباغتك شعرك باللون الأشقر الذهبى ؟

ودَّت لو أنها صفعته على وجهه ، حينما ذكر أمر شعرها المصبوغ ، وصاحت فى حنق :

– هذا لا يعنيك .

ابتسم وهو يقول :

– أردت فقط إثبات ما أقول ..

أرادت أن تنفجر فى وجهه غاضبة ، ولكن قدوم طعام العشاء ، واهتمامها بألا تتغير صورتها فى نظر جمهورها منعاها من الثورة ، فكظمت غيظها ، مما أفقدها شهية الطعام ، ولم تكد ترفع الأطباق حتى عاد (فؤاد) ينهمك فى حوار طويل مع (حاتم) ، وكأنهما قد نسيا وجودها تماماً ، مما جعلها تنهض فجأة ، وتقول فى حدة :

– هيَّا بنا يا (حاتم) .

أصابها الغضب حينما وصلت بأفكارها إلى هذه النقطة ، فقد تذكرت أن (فؤاد) نهض يصافحها فى هدوء ، وفوق شفتيه ارتسمت ابتسامته الساخرة ..

تبًّا لابتسامته الساخرة هذه !! لقد أصبحت شغلها الشاغل ..

لم تعد تشعر بالسعادة التى سيطرت على حواسها منذ أصبحت نجمة سينمائية ..

لم تعد تفرح لإعجاب الجماهير ..

أدهشها أن تثير ابتسامة واحدة ساخرة كل هذا الحنق فى نفسها ..

أدهشها أنها أصبحت تراها فى كل لحظة ..

حتى وهى مغمضة العينين ..

كانت تعلم أنه من المستحيل فى أى زمان ومكان ، أن يتواجد شخص واحد يجمع الكل بلا استثناء على الإعجاب به ..

لابد من وجود شخص واحد على الأقل يضيق بأسلوبه ..

كانت تعلم أن ابتسامة واحدة ساخرة ، لن تمحو كل ابتسامات الإعجاب حولها ...

ولكن عنادها صوَّر لها تلك الابتسامة الساخرة وهى تبتلع كل ابتسامات الإعجاب ، خيل إليها أنها .. تتسع .. وتتسع .. تكبر .. وتكبر ، حتى لم تعد ترى سواها ..

شعرت أنها لن تستعيد إحساسها بالتفوُّق والتألق إلا إذا هزمت هذه الابتسامة ...

أصبح (فؤاد) يبدو فى خيالها وكأنه عدوّها الأول ..

تصاعدت فورة الحماس إلى رأسها ، وتصاعدت معها الرغبة فى إيذاء (فؤاد) ..

نهضت من فراشها، وأخذت تذرع حجرتها فى توتر .

كيف يمكنها هزيمته ؟..

كيف يمكنها أن تحول ابتسامته من السخرية إلى الإعجاب ؟ ..

وفجأة برقت فى ذهنها فكرة ..

فكرة شيطانية أنبتها جحيم العناد والثورة ..

توصَّلت إلى وسيلة بها تهزم الدكتور (فؤاد) ..

حاولت أن تأوى إلى فراشها ، وتنام ، ولكن عبثاً ..
لم يتوقف ذهنها عن تقليب هذه الفكرة ودراستها ، حتى اختمرت فى ذهنها ، ووقرت فى قلبها ..
لم تتوقف عن التفكير حتى الصباح ..
شعرت بالإرهاق الشديد وهى ترتدى ملابسها هذا الصباح ..
حاولت أن تدارى شحوب وجهها بمزيد من أصباغ الزينة ، ولكنها فشلت ..
حاولت مرة ثانية وثالثة ، ولكن نصيبها فى كل مرة كان الفشل ، مما أورثها مزيداً من العصبية والتوتر ..
وبدت عصبيتها واضحة وهى تحاول أداء دورها فى المشهد الجديد أمام (أشرف خالد) هذا الصباح ..
لأول مرة فى حياتها الفنية أعيد أحد مشاهدها أربع مرات متتالية ..
كانت تشعر وكأنما هناك جدار مرتفع ، يحول بينها وبين الشخصية التى تحاول تقمُّصها ..
شعرت أن دموعها بعيدة .. بعيدة حتى أنها لم تستطع استجلابها ..

كانت عيناها تبحثان بين المشاهدين عن تلك الابتسامة الساخرة ..
وكأنما أدمنتها ..
لأول مرة يشعر (أشرف خالد) بتألقه أمامها ، مما دفعه لمزيد من الإجادة فى أداء دوره ، ولكن (حاتم) صاح للمرة الرابعة فى حنق :
— (ستوب) .. هذا غير معقول .. إنك مختلفة تماماً هذا الصباح يا (نهال) .
أغضبها أنه يصيح فى وجهها أمام جمهورها ، فأسرعت تتقمص دور المريضة ، وترفع يدها إلى رأسها فى إعياء واضح ، وتلوِّح بكفها الآخر فى ضعف ، وتسبل جفنيها ، ورموشها السوداء الطويلة فى وهن ، وهى تقول :
— معذرة يا عزيزى (حاتم) ، إننى أشعر بإرهاق شديد هذا الصباح ، دعنا نرتح قليلا ..
كانت ممثلة رائعة ، حتى أن الشفقة والعطف أطلا من عيون مشاهديها رواد النادى ، وندَّت من أفواههم همسات الحنان والمواساة ...
كادت تبتسم فى فخر وإعجاب ...

لقد نجحت فى تقمص ذلك الدور غير المكتوب ..

نجحت فى استدرار العطف من عيون الجميع ..

سيغفرون لها فشلها فى أداء هذا المشهد ولا شك ..

سيغفرون ؛ لأنهم يحبونها ..

رجل واحد لم يشعر بالعطف ..

ذاك هو (حاتم) الذى صاح فى غضب :

– نرتاح قليلا ؟!.. هل تعلمين كم تكلفنا الساعة الواحدة ؟

ارتفعت همهمات الغضب من أفواه المشاهدين ، حتى أن قلب (نهال) خفق سعادة ، وفرحاً ، ووجدتها فرصة سانحة لتحويل فشلها إلى انتصار ، فأسرعت تتقمص دور المقهورة، واستجلبت دموعها فى يسر إلى عينيها ، فانهمرت على وجنتيها الورديتين ، وهى تقول :

– حسناً يا (حاتم) ، فلنؤد المشهد مرة خامسة ، وأعدك أن أتحمل ، و ...

قاطعتها صيحات الغضب من أفواه المشاهدين ، حتى أن (حاتم) خشى أن يفقد شعبيته كلها لو حاول تصوير

المشهد لخامس مرة ، فغاص فى مقعده القماش وهو يقول فى ضيق :

– لا بأس يا (نهال) .. سنؤجل المشهد ..

منحته ابتسامة عريضة جذّابة ، خفقت لها قلوب المشاهدين ، وكأنها تعتذر عما أضاعته من وقته ، ثم عادت تتقمص دور الضعيفة، وألقت جسدها فى أسلوب مبالَغ فيه فوق أحد المقاعد ، وأغلقت عينيها متظاهرة بالإرهاق والتعب ..

اقترب (أشرف) من (حاتم) الذى يزفر غيظاً ، وجلس إلى جواره وهو يشير بأنفه إلى (نهال) مغمغماً:

– إنها شديدة التوتر هذا الصباح .

تمتم (حاتم) فى اقتضاب ، وكأنه لا يميل إلى مواصلة الحديث :

– هذا صحيح .

كانت فرصة مثالية لـ (أشرف) يمكنه خلالها مد العديد من الجسور ، بينه وبين (حاتم فوزى) ، المخرج الوحيد الذى لم يفشل له فيلم واحد حتى الآن ، على مستوى الجماهير أو النقاد ..

مال (أشرف) على أذن (حاتم) ، وهمس فى لهجة حاول أن يضفى عليها مظهر الود والصداقة :

ــ ألا تتفق معى فى أنها تبدو شاردة ؟

عاد (حاتم) يقول فى اختصار :

ــ بلى .

لم ييئس (أشرف) من محاولة استمرار الحديث ، فقال وهو يبتسم ابتسامة ذات مغزى :

ــ ربما كانت تحبّ .

ــ تحبّ ؟!

هتف (حاتم) بهذا فى لهجة تنم عن دهشته واستنكاره الشديد لرأى (أشرف) ..

لم يكن يتصور أن (نهال) كائن حى يمكنه أن يحبّ ويكره ..

لم يكن يتصور إلا أنهـا دمية جميلة ، كان له فضل اكتشافها ، وتقديمها للشاشة ..

كان هذا واحداً من أسباب استنكاره ودهشته ..

أما السبب الآخر فهـو أنه كان يستنكر أن تقـدم (نهال) على هذا دون معرفته ..

كان يظن أنه باكتشافه لها قد امتلكها ..

إنها حتى لم تمثل أدواراً فى غير أفلامه ..

لقد اقترن اسمها باسمه حتى صارا متلازمين ..

هى عبقرية فى الأداء وهو عبقرى فى الإخراج ..

كان يدهش للفكرة ويستنكرها ، ولكنها أقلقته ..

نهض فجأة من مقعده ، وترك (أشرف) على نحو أدهش هذا الأخير ، وتوجه من فوره إلى حيث تجلس (نهال) ، وسألها فى لهجة جادة حازمة :

ــ ماذا أصابك ؟

أجابته وهى ما زالت تتقمص دور الواهنة :

ــ لست أدرى يا (حاتم) .. إننى أعانى توتراً شديداً منذ البارحة .

سألها فى حدة :

ــ أما زالت كلمات (فؤاد) تؤرقك ؟

لم تغب عنها رنة الغضب فى صوته ، ولكنها تجاهلتها وهى تقول :

ــ أظن أن العكس هو الصحيح .

عقد حاجبيه وهو يسألها :

– ماذا تعنين ؟

رفعت إليه عينيها الواسعتين ، وقد نجحت فى ملئها بالضعف والاستكانة ..

كانت تعلم تأثير هذه النظرة المدروسة على الجميع ، حتى (حاتم) ..

بدا صوتها مرتجفاً ، على نحو يذيب أشد القلوب قساوة ، وهى تقول :

– أظن أن توتُّرى هو الذى ضاعف من غضبى على الدكتور (فؤاد) ، وليس العكس .

بدت الدهشة على وجه (حاتم) وهو يقول :

– عجباً ! ! إننى لم ألحظ توترك هذا ، ونحن نؤدى مشهد البارحة ، لقد كنت رائعة .

أمالت أصابعها فى الهواء بليونة ، وهمست فى استسلام :

– لقد بذلت مجهوداً مضاعفاً لأداء المشهد على الوجه الذى يرضيك يا (حاتم) .

نجحت فى أداء دورها ، حتى أن الشفقة تسللت إلى قلبه وهو يهمس :

– هل هناك ما يمكننى عمله ؟

رقص قلبها من نشوة الفوز ، حينما وصل بحديثه إلى هذه النقطة ...

كانت قد أعدت خطتها بطريقة لا تقبل الفشل ، فأسبلت جفنيها وهى تقول :

– لست أدرى يا (حاتم) ، إن نفسيتى مضطربة منذ أيام ..

هتف فى حماس :

– هل تحتاجين طبيباً نفسيًّا ؟

سيطرت على أعصابها حتى لا تهتف فرحاً ، وهى تقول فى وهن :

– هل تقترح واحداً ؟

أجاب فى حماس :

– بالطبع .. مَنْ غير الدكتور (فؤاد) ؟.. إنه أبرع طبيب نفسى عرفته .

بصعوبة شديدة منعت الابتسامة الظافرة من الارتسام على شفتيها وهى تغمغم :

– فليكن يا (حاتم) .. سأذهب إلى الدكتور (فؤاد) .

* * *

٤ ـ نقطة التحول ••

عجيبة هي هذه الدنيا ... عجيب هو هذا الرجل .. الدكتور (فؤاد) ..

لقد أعدت (نهال) خطتها فى براعة ، وهى تأمل إثارة دهشته ، حينما تلجأ إليه بعد أن كادت تتشاجر معه فى اليوم السابق ...

ولكن الدهشة كانت من نصيبها هى ..

لقد استقبلها الدكتور (فؤاد) بابتسامة عريضة ودود .. ابتسامة لا تحمل بأى حال من الأحوال ما كانت تحمله ابتساماته الأخرى ..

أدهشها أنه بدا بالغ الحنو والدفء وهو يستقبلها خارج عيادته ، ويلتقط كفها الرقيق ، ليقودها فى هدوء إلى الداخل وهو يقول :

ـ لقد أخبرنى (حاتم) أنك ستأتين لزيارتى .

وجدت نفسها تجيبه فى استسلام هامس :

ـ إنها ليست زيارة بالمعنى المفهوم ، إنها استشارة طبية . أنا مريضتك اليوم .

رفع يده إلى فمها فى رقة أدهشتها ، وارتجفت شفتاها حينما مستهما أنامله وهو يقول :

ـ لقد اتفقنا مسبقاً أننى لا أستقبل مرضى ، وإنما أصدقاء يبحثون عمن يفضون إليه بمشكلاتهم ..

كان بالغ الرقة ، شديد التهذيب ، حتى أنها كادت تتراجع عن الخطة التى قضت الليل فى إعدادها وتنميقها ، لولا أن عاودتها ذكرى ابتسامته الساخرة ، فعاودها العناد ، وقررت المضى قدماً فى خطتها .

قادها الدكتور (فؤاد) فى رفق إلى أريكة واسعة فى طرف عيادته ، وطلب منها فى أسلوب مهذب أن تستلقى فوقها ، فأطاعته فى استسلام ، وهى تحدث نفسها فى دهشة :

ـ أهذا هو نفس الرجل البارد الجاف ، الذى تقابلت معه أمس ؟..

أين اختفت ابتسامته الساخرة ؟..

كيف أمكنه أن يتحول إلى كل هذه الرقة ؟..

استلقت فوق الأريكة الواسعة فى استرخاء ، وتعلقت عيناها الواسعتان بعينيه العميقتين فى تساؤل ودهشة ..

بدت لها ابتسامته باعثة للارتياح وهو يسألها :

– ماذا يقلقك ؟..

ترددت لحظة قبل أن تجيب ..

أتمضى قدماً فى خطتها .. أم تتراجع أمام رقته ؟..

أجاب عنادها الطفولى سؤالها ، وأنهى ترددها ، فأسرعت تستدعى ملكاتها التمثيلية ، ومواهبها فى تقمص الشخصيات ..

نجحت بسرعة فى تقمص دور الفتاة المسكينة الحائرة ، وانتقلت حيرتها الزائفة إلى عينيها ، وهى تقول فى همس يحمل الكثير من الألم :

– لست أدرى يا دكتور (فؤاد) .. إننى أعانى توتراً شديداً منذ أيام .

سألها فى رقة :

– وماذا يثير توترك ؟

استعادت بسرعة كل التفاصيل التى قضت الليل فى دراستها ، وأسبلت جفنيها وهى تغمغم فى انكسار :

– إننى أحاول البحث عن السبب عبثاً يادكتور (فؤاد) .

قال فى صوت هادئ عميق :

– ربما كان السبب مستقراً فى عقلك الباطن ، وربما كان سبباً قديماً عاونت بعض الظروف أو المتاعب على ظهوره إلى السطح .

ثم أردف وصوته يزداد عمقاً :

– دعينا نحاول استعادة حياتك الماضية بحثاً عنه .

كانت تعلم أن هذه ستكون إجابته ...

عاونتها دراستها المحدودة بقسم الفلسفة ، وعلم النفس على استنتاج أسلوب علاجه ..

كانت تقوده فى براعة إلى الفخ الذى أعدته ..

تظاهرت بالتردد وعدم الفهم وهى تقول فى ضعف :

– وما صلة حياتى الماضية بما أعانيه ؟

حملت إجابته الكثير من مظاهر الود ، وهو يقول مبتسماً :

– دعينا نحاول .. من يدرى ؟

عادت تتظاهر بالتردد لحظة ، ثم انطلقت تقص عليه تلك القصة التى أعدتها مسبقاً ..

قالت له : إن والدها قد توفى وهى فى الثالثة من عمرها ، وإن والدتها قد عانت الكثير حتى تؤمن لها العيش ، ولكنها كانت تحمل خوفاً دائماً من فقدان أمها ، حتى

أصبحت شابة ، وبدأ المرض والضعف يداهمان الأم المسكينة ، ثم جاءتها فرصة العمل فى الحقل السينمائى ، فأسرعت تقتنصها أملا فى بعض الثراء ، الذى يعاونها على إسعاد أمها فى أيامها الأخيرة ، وأصبح العمل هو شاغلها الأول ، وهى تشعر بالتوتر ؛ لأن عليها أن تعمل دوماً بلا كلل أو تقاعس ، على الرغم من أحزانها ومتاعبها ..

أخبرته فى كلمات مرتجفة عن خوفها من فقد بريقها وشهرتها ، وعن النجوم التى تألقت فى سماء الفن سنوات ، ثم لم تلبث أن خبت وطواها النسيان ..

قالت له : إنها لا تخشى فقدان شهرتها من أجل نفسها ، ولكن خوفاً من أن تفقدها ، فى حياة أمها ..

عندما وصلت إلى هذه النقطة كانت قد تقمصت الدور حتى النخاع ..

وهنا بدأ الدمع يلمع فى عينيها ، ثم أجهشت فجأة بالبكاء .

خيل إليها أنها تسمع تصفيق المشاهدين ، وهتافات الإعجاب على ذلك الدور الذى لعبته فى مهارة ..

انتظرت أن تسمع صوت (حاتم) ، وهو يقول فى رصانته المعهودة :

- (ستوب) .. لقد كان مشهداً رائعاً .

ملكها ذلك التصور ، حتى كادت ترفع يدها لتحية جمهورها ، وترسم على شفتيها تلك الابتسامة الجذابة المدروسة ، لولا أنها تنبهت إلى أنها ترقد على الأريكة الواسعة فى عيادة الدكتور (فؤاد) ..

رفعت عينيها المغرورقتين بالدموع ، تبحث عن أثر دورها فى عينيه ..

كانت عيناه تعترفان أنها ممثلة بارعة ، قل أن يجود الدهر بمثلها ..

كانتا تمتلئان بالعطف والحنان والندم ..

انتابها فجأة شعور بالخزى ..

لم تكن تتصور كل هذا الحنان والدفء فى عينيه ..

كان يبدو إنساناً آخر ، يفيض حبًّا وحناناً ..

كانت تعلم أنها نجحت فى خداعه ، وأنها قد انتصرت فى لعبتها ، وعلى الرغم من ذلك تضاعف شعورها بالخزى ، وامتزج بندم شديد اعتصر قلبها ..

أما الدكتور (فؤاد) فقد كان يشعر حقًّا بالندم ..

شعر بالندم لأنه سخر من زينتها قبل أن يعلم شيئاً عن معاناتها .

لم يعد يراها الآن كما رآها من قبل ..

لم يعد يرى فيها تلك الممثلة الصغيرة المشهورة ، التى تلتهب بالرغبة فى الظهور ..

أصبح يراها طفلة مسكينة بائسة ، تبحث عن الأمان والحب ..

جاء هذا التحوُّل عنيفاً مفاجئاً ، حتى أنه ظل صامتاً وهو يتأملها طويلا ..

تنبه لأول مرة إلى ملامحها الرقيقة وأنوثتها المستسلمة ..

مدَّ يده فى هدوء وحنان يربِّت على كتفها ..

وارتجفت ..

لم تكد أنامله تمس كتفها ، حتى بعثت فى جسدها رجفة دافئة ، لم تدر لها سبباً ..

كادت تبكى ندماً حينما قال فى صوت دافئ حنون :

– لقد عانيت كثيراً .

لم يعد هناك من شك فى أنها قد انتصرت ..

نجحت فى تحويل سخريته إلى حب وإعجاب ..

ولكنها أبداً لم تسعد ..

لم تشعر بتلك النشوة التى يبعثها النصر فى عروق المنتصر ..

شعرت بالعار والخزى والندم ..

كان شعورها أقرب إلى الهزيمة والاندحار ..

جاء صوته الدافئ الحنون ؛ ليزيد من إحساسها بالندم وهو يقول :

– إن مشكلتك بسيطة واضحة .

أرادت أن تسأله عما يعنيه، ولكن غصة احتلت حلقها، ومنعتها من الحديث ، على حين استطرد هو فى حنان دافق:

– لقد أورثك فقدانك لأبيك فى تلك السن المبكرة إحساساً بعدم الأمان ، ظل يلازمك طوال فترة معاناة والدتك من أجل العيش ، وكان هناك شعور بالندم يراودك ؛ لأنك السبب فى كل هذه الأمراض والمتاعب التى تعانيها والدتك ، وحينما جاءك العمل فى الحقل السينمائى ، تصورت أن هذا هو حل مشاكلك كلها ، وتفوقت فى عملك حتى يمكنك تعويض والدتك عما قاسته من أجلك ، ولكن شعور عدم الأمان والندم ظل كامناً فى أعماقك ، يدفعك دوماً إلى مزيد من العمل والإرهاق ، حتى أصبحت تحتاجين إلى الراحة ، وهنا عاودك الخوف ، وتضاعفت مخاوفك السابقة ، مما ضاعف من توترك وقلقك .

كادت تعترض على تفسيره ، وتعترف بكل شيء ، ولكنها لم تستطع ..

كانت تعلم أنها قد قطعت شوطاً طويلا من الخداع ، ولم يعد بإمكانها التراجع ..

كان عليها أن تقطع الشوط إلى نهايته ..

سألته فى صوت جاءت ارتجافته طبيعية :

– وما هو العلاج ؟

هتف فى حماس مفاجئ :

– الراحة .

ثم بدا وكأنه قد تنبه إلى حماسه الزائد، فأردف فى خجل :

– الراحة التامة ، وإلغاء كل مواعيد العمل لأسبوع واحد على الأقل .

سألته فى استسلام طبيعى :

– وهل سيوافق (حاتم) على ذلك ؟

عاوده حماسه وهو يهتف :

– بالطبع ، سأبلغه أن هذا ضرورى للغاية .

ثم ارتسمت على شفتيه تلك الابتسامة الحانية وهو يردف فى همس :

– هذا إذا أراد المحافظة على أشهر نجمة سينمائية فى مصر .

ضاعفت عبارته الحنون كل مشاعر الندم والخزى فى أعماقها .

شعرت أنها أخطأت فى حق هذا الرجل الرائع ..

شعرت أنها لم تفهمه أو تقدره حق قدره إلا فى هذه اللحظة ..

رفعت إليه عينيها الواسعتين فى خجل ، فاستقبلتهما عيناه العميقتان فى حب وحنان ..

غمغمت فى انكسار :

– سأحاول قضاء تلك الإجازة هنا فى الإسكندرية ، بعيداً عن أضواء السينما فى القاهرة .

غمغم فى صوت خافت :

– سيسعدنى ذلك .

أدهشتها عبارته ، على الرغم مما بعثته فى نفسها من السعادة ، وأسبلت جفنيها ، وازداد تورد وجنتيها وهى تسأله فى خجل :

– ترى هل سنلتقى ؟

شعر وكأنها تعلن أملا راوده ، فاتسعت ابتسامته ، وازداد الدفء المطل من عينيه وهو يقول :

– ليس هناك من شك .

* * *

٥ – نهر الحب ..

سار كل شىء ببساطة لم تتوقعها (نهال) ..

وافق (حاتم) فى سرعة على قرار إجازتها ، ونقل فريق التصوير إلى القاهرة ؛ لأداء المشاهد التى لا تحتاج لتواجدها ، على أن تعاود العمل بعد أسبوع ..

والدتها كانت أكثر الجميع سعادة؛ لأن ابنتها ستقضى معها أسبوعاً كاملا ..

كانت قد افتقدتها كثيراً منذ انغماسها فى العمل الفنى .

لقد أجبرت ظروف العمل (نهال) على العيش فى القاهرة ..

أجرها المرتفع فى عالم السينما ساعدها على اقتناء شقة فاخرة فى أرقى أحياء العاصمة ، ولكن والدتها رفضت ترك الإسكندرية ، والانتقال إلى جوارها ..

رفضت أن تترك المنزل الذى قضت فيه أحلى سنوات عمرها ، مع زوجها الراحل ، والد (نهال) ..

أو ربما أرادت أن تبقى عليه لتحفز ابنتها على ترك ذلك الحقل السينمائى ، والعودة إلى أحضانها فى الإسكندرية ..

كانت تكره ذلك الفن الذى انتزع منها ابنتها الوحيدة .. تكرهه حتى الأعماق ..

كانت تتمنى أن تعيش ابنتها الحياة العادية لأى فتاة .. تحب وتتزوج وتنجب ، ويكون لها بيت هو كل مملكتها ، وزوج هو كل آمالها ..

لم تكن تحتمل حتى دموع ابنتها فى أفلامها ..

أخفت عنها أنها كانت تذرف الدموع الغزيرة ، كلما شاهدتها تبكى فى واحد من أفلامها ، التى لاقت نجاحاً منقطع النظير ..

إلى هذا الحد كانت دموع (نهال) ناجحة ...

كانت سبب مجدها وشهرتها ..

ذلك المجد ، وتلك الشهرة اللذين نسيتهما (نهال) طوال ذلك الأسبوع ..

لقد دعاها (فؤاد) لتناول العشاء فى مطعم هادئ على شاطئ البحر ..

لم تلتفت يومها إلى كل تلك العيون ، التى امتلأت بالإعجاب واللهفة ، وهى تتطلع إلى جمالها ، وإلى ملامحها الشهيرة ، وهى تعبُر باب المطعم ..

لم يعد إعجاب الجمهور هو كل ما تبحث عنه ..
أصبح لحياتها هدف آخر ، وأصبح لأحلامها اتجاه مخالف ..
لم تعد تبحث عن السعادة فى عيون جماهيرها ..
أصبحت تبحث عنها فى عينيه هو ..
لم يعد قلبها يرتجف فرحاً مع نظرات الرضا فى عيون الناس ..
بل أصبحت تطير سعادة مع نظرة رضا واحدة فى عينيه ..
فى عينى (فؤاد) ..
أصبح هو كل جمهورها ، ومعجبيها ، وآمالها ، وأحلامها ..
أصبح هو كل شىء فى حياتها ..
أدهشها ذلك التحوُّل المفاجئ فى مشاعرها نحوه ، وفى مشاعره نحوها ..
أدهشها حتى أنها سألته يوماً ، وهما يسيران فى تؤدة على رمال الشاطئ :
— هل تصدق أن علاقتنا قد بدأت بمشاجرة ؟

ابتسم وهو يقول فى حنان :
— لم تكن مشاجرة بالمعنى المفهوم .
ضحكت فى مرح وهى تقول :
— تقصد أنها كانت مجرد مناوشات على الجبهة كما يقول المعلقون السياسيون ! !
انتقل مرحها إليه وهو يقول :
— ربما ، ولكنها أدت إلى معاهدة سلام وصداقة ..
غمغمت فى خجل :
— وحب ..
تدفق الحنان من عينيه وهو يقول فى صوت هامس :
— وحب ..
شعرت برغبة فى التعلق بذراعه القوية ..
لم تترك رغبتها حائرة طويلا ، فتعلقت بذراعه ، وربَّت هو على كفها فى حنان وحب ..
سارا طويلا صامتين ، وهى تتأبط ذراعه ، ثم قفز سؤال قديم إلى رأسها فجأة ، فاستدارت إليه تسأله :
— هناك سؤال يحيرنى منذ فترة طويلة ، أيمكنك أن تجيبنى عنه ؟

ابتسم وهو يقول :

– بلا شك ، لو أننى أعلم إجابته .

توقفت فجأة ، واستدارت تملأ عينيها بعمق عينيه وهى تقول :

– لماذا كنت تبتسم فى سخرية ، حينما شاهدت المشهد الذى كنت أؤديه فى النادى ؟

شعرت بخجله وارتباكه وهو يقول :

– لقد كنت مخطئاً .

ابتسمت فى مرح ، لتنتزع منه الخجل والارتباك وهى تقول :

– ولكننى شغوفة لمعرفة السبب .

قادها فى هدوء إلى ركن ترتفع فيه الرمال ، إلى مايشبه تبة صغيرة ، وجلسا متجاورين ، يحدقان فى أمواج البحر ، التى انعكست فوقها أشعة شمس شارفت المغيب ، وظل صامتاً طويلا وكأنه يبحث عن الكلمات المناسبة ، ثم قال :

– صحيح أننى أعالج نصف نجوم السينما فى مصر ، ولكننى لم أتابع يوماً أخبارهم الفنية ، ولم يثر هذا أدنى

اهتمام بداخلى ، كنت أتعامل معهم كمجموعة من ضحايا أمراض الشهرة .

صمت مرة ثانية ، وكأنه يحاول الانتقال إلى الأمر الذى يعنيها ، ثم أردف :

– فى ذلك اليوم ذهبت إلى النادى ، لأتناول طعام الغذاء ، وأثارت تلك الجموع التى التفت حول طاقم التصوير انتباهى ، وسمعت رواد النادى يتحدثون عن تلك النجمة السينمائية الرائعة الجمال ، صاحبة أغزر دموع على الشاشة .

عاد إلى صمته ، وهو يبتسم لقرص الشمس ، وكأنه يتذكر أمراً مرحاً ، ثم عاود حديثه قائلا :

– لست أدرى ما الذى جذبنى لمشاهدتك ، على الرغم من أن هذا لم يثر انتباهى مطلقاً طيلة عمرى .

التصقت به وهى تقول فى سعادة :

– إنه القدر .

أطلق ضحكة قصيرة مرحة ، ثم استطرد :

– شاهدتك – يومئذ – فى واحد من أروع مشاهدك ، وأصدقك القول أن أداءك قد بهرنى جدًّا .

سألته فى دهشة :

- أحقًا ؟ ! .. لم كانت ابتسامتك الساخرة إذن ؟

أحنى رأسه وكأنه يعتذر عما بدر منه حينذاك، وقال :

- رأيتك بصورة مخالفة فى ذلك الحين .

اعتدلت وهى تسأله فى اهتمام :

- كيف رأيتنى حينذاك ؟

ابتسم فى خجل،فتعلقت فى ذراعه وهتفت فى لهفة:

- لن يضايقنى ذلك .. أقسم لك ..

تردد لحظة ، ثم ابتسم على نحو يحمل الاعتذار وهو يقول :

- رأيتك حينئذ - كتلة من الزيف .

هتفت فى دهشة واستنكار :

- الزيف ؟ ! ..

رفع سبابته أمام وجهها محذراً ، وقال فى عتاب حنون :

- لقد أقسمت ألا يضايقك ذلك .

ضحكت وهى تقول :

- لا بأس ، تابع روايتك .

صمت لحظة ، شملهما خلالها شعور هادئ عميق ، ثم قال :

- كل ما رأيته فى تلك اللحظة شعور زائف ، شعر مصبوغ ، وجه امتلأ بمساحيق التجميل ، وفيض من الدموع الباردة .

رددت خلفه فى دهشة :

- دموع باردة ؟ !

سرح ببصره لحظة ، يتأمل قرص الشمس ، الذى غاب نصفه وراء الأفق ، ثم قال :

- صحيح إنك تذرفين الدموع أنهاراً ، ولكنها كلها دموع باردة ، لا تحمل شيئاً من حرارة العواطف النبيلة .

آلمتها كلماته ...

أعادت إليها ذكرى تلك الدموع التى ذرفتها فى عيادته ..

عاد شعورها بالإثم يملأ كيانها ، ويمزق نياط قلبها ...

أطرقت برأسها ، وكأنها تشعر بالخجل من ذكرى خديعتها له ، وسألته فى ارتباك :

- ألا تؤثر فيك دموع المرأة ؟

بدأ بينهما حديث ارتجالى ، وهما يتطلعان إلى قرص الشمس ، الذى لم يعد باقياً منه سوى جزء ضئيل أحمر ، دون أن يلتفت أحدهما إلى الآخر ، حينما أجابها :

– دموع الرجل تؤلمنى أكثر .
– ولكن المرأة أضعف .
– ربما كان هذا ما يؤلمنى فى دموع الرجل .
– لم أفهم .
– دموع المرأة تعبر عن ضعفها ، وهذا أمر طبيعى ، فهى سلاحها الوحيد .
– ودموع الرجل ؟ !
– دموع الرجل تحمل دائماً دفقاً من العواطف ، مع دماء كرامة جريحة .
– الرجال لا يبكون بدموع باردة فى رأيك إذن .
– لا يبكى الرجل إلا بدموع حارة .
– أنت متعصب لجنس الرجال .
– مطلقاً ، ولكننى أتحدث عن أمر منطقى .
– ما المنطق فى ذلك ؟
– الرجل لا يربح شيئاً بالبكاء ، إنه على العكس يخسر الكثير بإعلان ضعفه ، ولكن المرأة تربح دائماً بضعفها لا بقوتها .

لم تستطع (نهال) مواصلة الحديث عند هذه النقطة ..
كانت تعلم أن منطقه لا يقبل الجدل هذه المرة ...
جلستهما فى مواجهة مغيب الشمس تؤكد ذلك ..
لقد انتصرت عليه بالخديعة والضعف والدموع ..
الدموع الباردة ..

ساد الصمت بينهما تماماً بعد هذه النقطة ، وتطلع كل منهما إلى الشفق الذى تلوَّن بألوان الغروب الرائعة ، بعد مغيب الشمس ، ولكن أيًّا منهما لم يكن يرى شيئاً ..

كان كل منهما يسبح فى أفكار بعيدة ، تتباعد وتتلاقى دون أن يعلما ..

كان هو يفكر فى ذلك الشىء الذى يشغل عقله منذ أسبوع ..

كان يتساءل عن سر ذلك الشعور الدافق ، الذى يملأ كيانه كلما رأى (نهال) ، أو سمعها ، أو حتى تذكرها ..
أهو الحب ؟ ! ..
لقد عاش حياته كلها كاهناً فى محراب العلم ..
انكب على دراسته وعمله ، حتى لم يعد لديه سواهما ..

شارف الأربعين دون أن يفكر فى الحب والزواج ..

والآن خفق قلبه للحب ..

لأول مرة يشعر بهذه المشاعر الفياضة ..

لأول مرة تتألق عواطفه ، ويتسلل الحب إلى أعماقه .

ولكن هل يصارحها بحبه ؟ ...

هل يكشف لها عن عواطفه ؟ ..

تذكر فجأة فارق السن بينهما ..

كانت قد تخطت الثانية والعشرين ببضعة شهور ، على حين يخطو هو نحو الأربعين ، بعد شهر واحد وبضعة أيام ..

ترى هل يصنع فارق السن أسواراً حولها ؟ ..

ظل هذا السؤال يشغل رأسه والظلام يزحف حولها ..

أما هى فقد كانت تفكر فى الخدعة التى كانت بداية حبهما ..

هل من حقها أن تقيم حبًّا نبيلا على أساس من الغش والخداع ؟ ..

هل يمكن أن تنبت الزهور من الأشواك ؟ ..

شعرت بنهر الحب يتدفق فى قلبها ..

ذلك النهر الذى يجرف أمامه كل ألوان الغش والخداع ..

ترددت طويلا وهى تبحث عن وسيلة للاعتراف ..

شعرت أنها ينبغى أن تعترف له بكل شىء ...

لابد أن تبنى حبهما على الصراحة والوضوح ..

مالت برأسها لتستند إلى كتفه ..

بدا منظرهما من بعيد كمراهقين شغلهما الحب عن الظلام الذى يزحف حولهما ..

كان من العسير عليها أن تعترف بخداعها ، وتضيع تلك اللحظات الرائعة ..

ولكن شعورها بالذنب كان يتغلب على سعادتها ..

كان يضيع منها أجمل لحظات عمرها ..

شعرت أن قلبها لن يعرف الاستقرار والراحة إلا إذا اعترفت له ..

رفعت رأسها عن كتفه ، واستدارت بوجهها تواجهه ، وانفرجت شفتاها لتنطق باعترافها ، ولكنه أدار وجهه إليها فى هذه اللحظة ..

أضاعت نظراته العميقة الكلمات من فوق شفتيها ..

شعرت وكأنما يحتويها بعينيه تماماً ...

ولكنها قررت الاعتراف ..

قبل أن تنطق بكلمة واحدة ، تكلم هو .. قال كلمات قليلة أطارت صوابها ..

كانت كلماته دافئة حنون وهو يهمس :

— (نهال) .. هل تقبليننى زوجاً ؟

* * *

٦ – الثورة ..

لم تصدق أم (نهال) ما سمعته أذناها من بين شفتى ابنتها للوهلة الأولى ، ثم لم يلبث قلبها أن رقص طرباً ، وتدفقت إليه ينابيع السعادة ...

لم يكن زواج ابنتها وحده صاحب كل هذا القدر من السعادة ، وإنما ذلك الفرح المرتسم فى كل خلجة من خلجات (نهال) وهى تخبرها بالأمر ..

لم تحاول الأم سؤال ابنتها عما إذا كانت قد وافقت على الزواج ..

كانت كل خلية فى جسد (نهال) تنطق بالموافقة والسعادة ..

فكرة زواجها من (فؤاد) ملأت قلبها فرحاً وعشقاً ..

أطلقت الأم زغرودة عالية مجلجلة ، واحتوت جسد ابنتها بين ذراعيها ، وهى تهتف من وسط دموع فرحها :

— كم دعوت الله — سبحانه وتعالى — أن يطيل عمرى حتى أحيا هذه اللحظة يا بنيتى .

قالت (نهال) فى فرح وهى تستكين بين أحضان والدتها :

— إنك لم تسألى حتى عمن يكون الرجل الذى طلب الزواج منى .

ضحكت الوالدة فى رصانة ، وقالت وهى تضم ابنتها إلى صدرها أكثر :

— الأم تقرأ ما ينبض به قلب ابنتها يا (نهال) .. إنه الدكتور (فؤاد) ، أليس كذلك ؟

أراحت (نهال) رأسها على صدر أمها لأول مرة منذ عامين ، وهتفت فى سعادة :

— أنت رائعة يا أماه .

مسحت الأم رأس ابنتها فى حنان ، وسألتها :

— هل تحبينه يا (نهال) ؟

تضرج وجه (نهال) بحمرة الخجل وهى تهمس :

— إننى أعشقه يا أماه .

ربّتت الأم الحنون على ظهر ابنتها ، وهمست فى أذنها :

— باركما الله — سبحانه وتعالى — يا بنيتى .

أبعدت (نهال) رأسها عن صدر أمها لحظة ، وهتفت :

— إنه يرغب فى رؤيتك يا أماه .

ارتسمت ابتسامة حانية على شفتى الأم وهى تقول :

— سيشرفنى حضوره فى أية لحظة يا بنيتى .

هتفت (نهال) فى فرح :

— لن يطول الوقت يا والدتى ، إنه يتعجل الزواج .

ثم عادت تقترب من والدتها ، وتهمس على استحياء :

— إنه فى نحو الأربعين يا والدتى .

عادت أمها تمسح رأسها فى حنو ، وهى تقول :

— فارق السن لا يعنى شيئاً يا (نهال) ، لقد كان والدك — رحمه الله — يكبرنى بعشرين عاماً ، ولكننا أظلتنا السعادة طيلة زواجنا .

وتنهدت وكأنها تتحسر على زوجها الراحل ، على حين صاحت (نهال) فى فرح :

— لقد أخبرته بذلك يا أماه ، ولكنه كان يريد أن يعرف رأيك فى فارق السن .

ثم أردفت فى لهفة :

— سيأتى لزيارتك غداً يا أماه .

احتضنتها والدتها فى حنان ، وغمغمت فى سعادة :

– سأنتظره يا عزيزتى .

أفلتت (نهال) من بين ذراعى والدتها ، وأسرعت إلى الهاتف وهى تقول :

– سأطلب من (حاتم) أن يؤجل التصوير أسبوعاً آخر .

كادت الأم تهتف :

– فليؤجله إلى الأبد .

ولكنها اكتفت بترديد هذا الهتاف فى أعماقها فقط .. لم تشأ أن تفسد فرحة ابنتها فى أكثر لحظات عمرها سعادة ..

واختطفت (نهال) سماعة الهاتف ..

أدارت القرص فى لهفة تطلب رقم منزل (حاتم) فى القاهرة ..

لم تكد تسمع صوته عبر الأسلاك ، حتى هتفت فى مرح :

– كيف حالك يا مخرج الجوائز ؟

عرف (حاتم) صوتها على الفور ، ولاحظ رنة المرح فيه ، فقال :

– مرحباً يا (نهال) ، لقد اشتقنا لك جميعاً ، إننى

أجلس الآن مع (أشرف خالد) ، وهو يرسل إليك تحياته ، وينتظر حضورك لأداء المشهد الجديد .

أسرعت (نهال) تقول :

– يؤسفنى أنه سيضطر للانتظار طويلا ، فأنا سأمد إجازتى أسبوعاً آخر .

عبرت لهجته عن سخطه واستيائه وهو يقول فى حدة :

– أسبوعاً آخر ؟! .. هل تعلمين كم يكلفنا كل هذا التأخير ؟ .. سيثير هذا غضب المنتج و ...

قاطعته وهى تقول فى مرح :

– دع لى أمر المنتج ، أنا واثقة أنه سيوافق ، وسأدعوكم جميعاً إلى الإسكندرية ، ولكن بلا عمل .

سألها فى غضب :

– بلا عمل ؟! .. أتهزلين ؟

ضحكت وهى تقول فى سعادة :

– لست أهزل ، ولكننى سأتزوج .

– تتزوجين ؟!

انطلقت الكلمة عبر أسلاك الهاتف كالقنبلة ، حتى خيل لـ (نهال) أنها ستخرق أذنيها ..

عبرت الكلمة عن ثورة عارمة تفجرت فى أعماق (حاتم) ، وانتزعت من (نهال) مرحها ، وسعادتها ... لم تترك لها إلا الحيرة ، وهى تسأله فى دهشة :

– نعم سأتزوج ، ماذا يدهشك فى ذلك ؟

صرخ فى ثورة :

– أى أحمق هذا الذى ...

بتر عبارته فجأة ، حينما تنبه إلى ما تحويه من إهانة لها ، ولكن مقصده لم يغب عن ذهن (نهال) ..

تحول فرحها وسعادتها إلى غضب هادر وهى تهتف :

– ماذا تقصد يا (حاتم) ؟

صرخ ولم تفارقه ثورته بعد :

– أقصد أنك تصرفت فى حماقة وتهور .

انقبض قلب أمها حينما سمعتها تصرخ هى الأخرى فى غضب :

– أى حماقة فى إنسانة تبحث عن الاستقرار ؟ وأى تهور فى زواج شريف ؟

تحوّل الحديث بينهما إلى جدل صارخ وهو يقول :

– الحماقة هى أن يبيع الإنسان نفسه من أجل نزوة سخيفة .

– الزواج هو أشرف وأطهر علاقة تربط كائنين .

– خطأ .. الزواج هو مقبرة العظماء والناجحين .

– بل الزواج هو الحضارة والعظمة والنجاح ، كل العظماء تزوجوا .

– لقد فقدوا عظمتهم مع الزواج ، (نابليون) حطمته (جوزفين) ، و (هتلر) انتحر بعد لحظات من زواجه بـ (إيفا براون) ، و (كليوباترا) تزوجت مرتين ، وحطمت فى كل مرة عظيماً ، ثم انتحرت فى النهاية .

– لست (جوزفين) ولا (إيفا) ، ولا (كليوباترا) يا (حاتم) .. أنا (نهال حمدى) ..

– أنت النجمة (نهال حمدى) .. حلم الملايين ، سيفقدك الزواج كل بريقك وتألقك .

– ماذا يعنى جمهورى إذا ما تزوجت ؟

– هذا يعنى أنك لن تصبحى حلمهم بعد الآن ، إن كلا منهم يتصورك الآن حبيبته ، وزوجته ، وحلمه ،

ولكنك إذا تزوجت فستحطمين كل هذا فى أعماقهم ، ستصبحين فى نظرهم حبيبة رجل آخر ، وزوجة رجل آخر ..

– سأتزوج يا (حاتم) ، سأتزوج حتى ولو فقدت هذا الجمهور الذى تتحدث عنه .

– ليس هذا من حقك ، لقد صنعتك أنا ، ولن أسمح لك بتحطيم صنيعتى ..

– هل تظن نفسك إلهاً ؟

– أنا لست إلهاً ، ولكنك تدينين لى بكل ما وصلت إليه من شهرة ومجد .

لم تعد (نهال) تحتمل مواصلة الحديث عند هـذه النقطة ، فصرخت وهى تلقى سماعة الهاتف فى قوة :

– فلتذهب الشهرة والمجد إلى الجحيم .

ألقت سماعة الهاتف ، واستدارت إلى أمها التى وقفت صامتة جزعة ، وصرخت :

– هذا اللعين يحاول منعى من الزواج ، ويدَّعى أن الزواج سيفقدنى شهرتى وبريقى .

ظهر الخوف والقلق فى عينى الأم ، على حين واصلت هى صراخها :

– سأثبت له أنه مخطئ .. لن يفقدنى الزواج شهرتى ، سأتزوج (فؤاد) ، وأزداد تألقاً ومجداً .

ارتجفت الأم وهى تقترب منها فى بطء ، وأحاطتها بذراعيها فى تردد ، وهمست :

– فليذهب المجد والشهرة إلى الجحيم كما قلت منـذ لحظات يا بنيتى ، انسى كل هذا ، ألقيه خلف ظهرك ، تزوجى ، وليكن لك منزل هادئ ، وأولاد ظرفاء .

أفلتت (نهال) من بين ذراعى والدتها ، وقالت فى عصبية :

– سيكون لى منزل هادئ ، وأولاد ظرفاء ، ومجد سينمائى يا أماه ، لن أفقد شيئاً .

ثم عادت تردد فى صراخ هادر :

– لن أفقد شيئاً .

ترددت هذه العبارة فى نفس اللحظة على لسان (حاتم) فى القاهرة ..

كان يتحرك فى أنحاء منزله كالأسد الحبيس ، وقد ملكته الثورة حتى أخمص قدميه ..

لم يكن من السهل عليه أن يفقد النجمة التى صنعها ..

لم يكن من اليسير على نفسه أن يخسر الدمية الجميلة ، التى راهن على فوزها فى مضمار الفن ..

كان زواجها يعنى فشله الأول فى هذا المضمار ..

جلس (أشرف) يتأمله فى صمت ، وقد سرت فى عروقه دماء السعادة والراحة ..

لم يكن يكره (نهال) ، ولكنه كان يعلم أن بقاءها فى الحقل السينمائى يؤخر ظهوره وتألقه ..

كانت (نهال) بموهبتها الرائعة ، وجمالها الصارخ كالصرح الشامخ الذى يحجب ضوء الشمس عن الأبنية الصغيرة ..

ما زال يذكر كيف انفض جمهوره من حوله بعد المشهد الرائع ، الذى انتزعت فيه دموع المشاهدين فى الإسكندرية ..

كان زواجها ، وفقدانها رعاية (حاتم) يعنيان أنه سيصبح الورقة الرابحة فى يد هذا المخرج الشهير ..

كان عليه أن يدفعها للزواج ، ويعمق صداقته بـ (حاتم) فى الوقت نفسه ..

كان عليه أن يؤدى أعظم أدواره ، دون نص مكتوب ..

رفع عينيه إلى (حاتم) ، وقال فى إشفاق زائف :

ـ ماذا يمكننا أن نفعل الآن ؟

هتف (حاتم) فى ثورة :

ـ نحاول منع هذا الزواج بأية وسيلة ، هذه الحمقاء لا تدرى ما تفعله بنفسها .

قال (أشرف) فى حماس مفتعل :

ـ كان عليها أن تستشيرك أولا .

وافقت العبارة هوى (حاتم) ، فهتفت :

ـ أليس كذلك ؟

ثم عاد يدور فى أنحاء شقته ، مغمغماً فى سخط :

ـ لابد من منع هذا الزواج .

والتفت فجأة إلى (أشرف) ، وصاح فى ثورة :

ـ سنسافر إلى الإسكندرية فوراً ، سنمنع هذه المجنونة مما تنوى الإقدام عليه .

ارتسمت ابتسامة غامضة على شفتى (أشرف) ، وهو يقول فى هدوء :

ـ لا تقلق يا أستاذ (حاتم) ، لدىَّ فكرة لا تقبل الفشل .. فكرة ستهدم هذا الزواج من أساسه .

* * *

٧ ـ الخديعة ..

ارتفع رنين جرس الباب فى منزل والدة (نهال) على نحو مزعج متواصل ، أقلق (نهال) فى فراشها ، فألقت نظرة على ساعتها ، وتساءلت فى سخط عن هذا السخيف الذى يرن جرس الباب بمثل هذا الإلحاح فى السادسة والنصف صباحاً ..

لم تحاول النهوض من فراشها .. تركت أمر معرفة الطارق السخيف لأمها ..

سمعت صوت أقدام أمها تسرع إلى الباب ، فعادت تغلق عينيها فى محاولة لجلب النوم ..

لم تكن قد ذاقت النوم لحظة واحدة ، منذ حديثها الهاتفى مع (حاتم) أمس ..

لم ينجح حديث (حاتم) فى دفعها إلى تغيير قرارها بالزواج من (فؤاد) ، ولكنه أثار فى عقلها عدداً لاحصر له من التساؤلات ..

هل ستفقد شعبيتها حقًّا لو تزوجت ؟!..

هل سينطفئ بريقها إذا ما صارت زوجة ؟..

لماذا لا يعيش النجم حياته الخاصة ؟ ..

لماذا يصر جمهوره على التدخل فى قراراته وأحكامه ؟

توقفت عن تساؤلها فجأة ، حينما صك مسامعها صوت أمها تهتف فى دهشة :

ـ الأستاذ (حاتم) ، ماذا حدث ؟ خيراً إن شاء الله.. لماذا أتيت فى هذا الوقت المبكر ؟

قفزت من فراشها كالملسوعة ، وأسرعت ترتدى ثوباً بسيطاً ، وتهرع إلى غرفة الاستقبال .

كان (حاتم) يجلس هادئاً على عكس ما تصورت .. أمها هى التى كانت تجسد التوتر والقلق ..

استقبلها (حاتم) بابتسامة هادئة ، حارت فى تفسيرها وهو يقول :

ـ لم أستطع الانتظار طويلا .. انطلقت بسيارتى من القاهرة إلى هنا فى ثلاث ساعات لا غير .

سألته فى برود وهى تتخذ المقعد المقابل له :

ـ وما الذى دفعك إلى ذلك ؟

قال فى برود أشد، وهو يشعل إحدى سجائره القصيرة، ذات الرائحة النفاذة :

- أردت أن أمنع هذه الحماقة .

عقدت حاجبيها فى غضب ، وقالت فى حدة :

- لقد انتهينا من الحديث فى هذا الأمر يا (حاتم) ، سأتزوج (فؤاد) ، وليكن ما يكون .

هتف فى دهشة :

- (فؤاد) ؟!.. (فؤاد) من ؟ !

قالت فى لهجة هى أقرب إلى التحدى :

- الدكتور (فؤاد صادق) .. صديقك القديم .

ظل (حاتم) يحدّق فى وجهها بدهشة بضع لحظات ، وخيل إليها أن الكراهية قد ارتسمت على ملامحه واضحة ، ولكنها لم تلبث أن تخلت عن رأيها هذا ، وأصابتها الدهشة حينما أطلق فجأة ضحكة عالية ، وقال :

- (فؤاد) ؟!.. هذا آخر ما كنت أتوقعه .

ثم نهض فجأة ، وتقدم منها وهو يمد يده لمصافحتها ، قائلا :

- دعينى أهنئك إذن ، لم أكن أتصور أنك ستتزوجين رجلا مشهوراً ، تصورت حينما أبلغتنى الخبر أنك قد وقعت فى حب شاب تافه .

ارتجف قلبها وهى تسأله فى لهفة :

- وهل يغير هذا من الأمر شيئاً ؟

هتف فى حماس بدا لها صادقاً :

- بالطبع ، الزواج من رجل ناجح مشهور هو ربح للفنانة .

ثم عاد يصافحها ، ويقول ضاحكاً :

- دعينى أهنئك مرة أخرى .

رقص قلب (نهال) وهى تتقبل تهنئته فى فرح هذه المرة ..

عاودها المرح وهى تقص عليه أخبار اتفاقها على الزواج مع (فؤاد) ..

واستمع هو إليها فى صمت ، ثم نهض ، قائلا :

- يسعدنى أن وجدت الرجل المناسب يا عزيزتى ، متى سيكون الزواج ؟

هتفت فى سعادة :

- الخميس القادم بإذن الله .

ثم تضرج وجهها خجلا وهى تومئ إلى والدتها قائلة :

- إذا ما وافقت أمى بالطبع .

أدهشها ذلك الشحوب الذى يغطى وجه أمها وهى تغمغم :

ـ سأفعل ما يسعدك يا بنيتى .

انصرف (حاتم) بعد أن هنأها للمرة الثالثة ، ولم يكد يغلق الباب خلفه ، حتى التفتت إلى والدتها ، وصاحت فى فرح :

ـ هل رأيت يا أماه ؟ .. إننى لن أخسر شيئاً ، سأتزوج (فؤاد) ، وأظل نجمة لامعة .

غمغمت الأم فى صوت شاحب قلق :

ـ فليصنع الله ـ سبحانه وتعالى ـ ما فيه الخير يا بنيتى .

أدهشها ذلك الشحوب الذى أصاب أمها ، فاقتربت منها تسألها فى قلق :

ـ ماذا أصابك يا أماه ؟.. لقد انتهت المشكلة ، ولقد سمعت بنفسك (حاتم) يهنئنى ثلاث مرات .

هزت الأم رأسها فى حيرة ، وغمغمت :

ـ لست أدرى يا (نهال)، ولكننى لا أشعر بالارتياح ..

كم هو صادق قلب الأم ...

ففى نفس اللحظة التى كانت (نهال) فيها ترقص

طرباً ، كان (حاتم) ينطلق بسيارته إلى منزل (فؤاد) ، وقد امتلأ قلبه بالكراهية والغضب .

لم يشعر فى حياته بالكراهية كما شعر بها الآن ..

بدا له (فؤاد) مغتصباً ، نجح فى الاستيلاء على قلب دميته الجميلة ..

منذ سمع قرار (نهال) بالزواج وهو ينظر إليها على نحو مختلف ..

كان فى الماضى يراها مجرد جواد رابح ، يحسن تدريبه واستغلاله ..

دمية جميلة صنعها ليضيف نصراً إلى أمجاده السابقة ..

أما الآن فقد بدت له أنثى رائعة الجمال تكاد تفلت من بين أصابعه ..

كان يشعر أنه أحق بها ..

ما دامت ستتزوج ، فلن يكون لها من زوج سواه ..

أوقف سيارته أمام منزل (فؤاد) ، وأسرع يرقى درجات السلم إلى شقته ..

قرع بابها ثلاث مرات متتالية فى لهفة ، ثم انتظر فى توتر وحنق ..

لم يمض وقت طويل حتى فتح (فؤاد) الباب فى منامته، وحدّق فى وجه (حاتم) فى دهشة ، قبل أن يهتف :

– (حاتم) ، ما الذى جاء بك فى هذا الوقت المبكر ؟

رسم (حاتم) ابتسامة ودّ زائفة على شفتيه وهو يقول :

– ألا تدعونى للدخول أولا ؟

تحرك (فؤاد) جانباً ، ليفسح له فى الطريق ، وتقدم (حاتم) فى هدوء إلى الداخل ، ثم أسرع (فؤاد) يغلق الباب ، ويسأله فى قلق :

– خيراً .

اتخذ (حاتم) مظهر الإنسان الجاد ، وهو يقول فى لهجة توحى بالخطورة :

– استمع إلىّ جيداً يا (فؤاد) ، إننا صديقان قديمان ، وهذا ما دفعنى لزيارتك فى هذا الوقت المبكر ، أردت اللحاق بك قبل أن ترتكب أكبر خطأ فى حياتك .

عقد (فؤاد) حاجبيه وقد تملكه القلق الشديد ، وهمس فى انفعال :

– أكبر خطأ ؟!.. ماذا تعنى يا (حاتم) ؟

حرك (حاتم) كفه فى الهواء بحركة مسرحية ، وقال :

– لقد جئت لأنقذك يا صديقى .

وصل قلق (فؤاد) إلى ذروته وهو يسأله :

– تنقذنى ؟!.. وبم تنقذنى أو ممن ؟ يا (حاتم) .

جلس (حاتم) فى هدوء ، ولاذ بالصمت وهو يتطلع إلى (فؤاد) ..

كان يعلم أن هذا الأسلوب كفيل بتمزيق هذا الأخير إرباً ..

ظل صامتاً حتى سأله (فؤاد) فى حدة :

– قل ما أتيت من أجله ، أو انصرف يا (حاتم) .

عرف (حاتم) من تلك اللهجة أن الفريسة قد أصبحت معدة للذبح ، فمال نحو (فؤاد) ، وقال :

– سمعت أنك تنوى الزواج من (نهال حمدى) .

صاح (فؤاد) فى عصبية :

– هذا صحيح .

مطّ (حاتم) شفتيه فى حركة مدروسة توحى بالشفقة ، وقال :

– هذا ما أتيت أحاول منعه قبل أن تخدعك هذه اللئيمة يا صديقى .

لم تعد أعصاب الدكتور (فؤاد) تحتمل كل هـذا القدر من الغموض ، فسقط فوق المقعد المقابل لـ (حاتم) وغمغم فى صوت متحشرج :

ـ ماذا تعنى ؟

قال (حاتم) فى هدوء :

ـ إنها غارقة حتى أذنيها فى حب الممثل الشاب الوسيم (أشرف خالد) أيها المسكين .

امتقع وجه (فؤاد) وهو يغمغم :

ـ ماذا تقول ؟!..

ثم هتف فجأة فى غضب :

ـ هذا كذب .. لن أصدق حرفاً واحداً منه ، لماذا تعمل معها ما دامت بهذه النذالة ؟

هزّ (حاتم) كتفيه ، وقال :

ـ العمل عمل يا صديقى ، ولكن زواجك منها أمر آخر .

غمغم (فؤاد) فى عناد :

ـ ما زلت لا أصدق حرفاً واحداً .

مدّ (حاتم) يده إلى جيب سترته ، والتقط مجموعة من الصور الفوتوجرافية ، ألقاها أمام (فؤاد) وهو يقول :

ـ لقد توقعت ذلك ، لذا أحضرت لك ما يثبت قولى .

شحب وجه (فؤاد) وهو يحدق فى الصور ، دون أن يجرؤ على لمسها ..

تماماً كما يحدق الإنسان فى أفعى سامة تستعد لمهاجمته ..

نهض (حاتم) ، قائلا فى هدوء :

ـ سأتركك وحدك ، لتفكر فى هدوء وروية ، ربما اقتنعت بصدق نيتى .

غادر المنزل دون أن يودعه (فؤاد) ، الذى ظل مسمَّراً فوق مقعده ، كأنما أصيب بالشلل ..

غادر المنزل وهو يعلم أن خطته قد نجحت ..

كل ما عليه هو أن يعود إلى منزله فى القاهرة ، وينتظر ..

أصبح واثقاً أنه لن يمضى وقت طويل ، حتى تأتى إليه (نهال) زاحفة ، تنشد عفوه ..

أما (فؤاد) فقد ظل شاحباً ، يحدق فى كومة الصور ..

لم يكن باستطاعته أن يصدق أنها تخدعه ..

كان يفضل الموت على اكتشاف ذلك ..

ولكنه عجز عن مقاومة فضوله فى رؤية الصور ..

مد أصابعه المرتجفة ، ومس الصور بأنامله ..

تراجعت كفه فجأة كأنما مسّ قطعة من الفولاذ الملتهب ..

ماذا لو أن (حاتم) صادق فيما يدعى ؟..

إنه لن يحتمل الصدمة ..

ولكن عليه أن يتأكد ..

اختطف الصور بغتة ، وكأنه يخشى ألا يجرؤ على ذلك ، ورفعها إلى عينيه ..

لم يكد يفعل حتى تحوّل وجهه إلى اللون الأبيض من شدة الشحوب ، وغمغم فى ذهول :

ـ هذا مستحيل .. مستحيل ..

فلم تكن الصور إلا مجموعة من لقطات تجمع ما بين (أشرف) و (نهال) ، فى مواقف تؤكد أن كلاً منهما يذوب حباً فى الآخر ..

لقطات لا تقبل الشك ..

صرخ وهو يلقى الصور بعيداً :

ـ أيتها الخائنة .. لن أتزوج زائفة مثلك أبداً .. أبداً ..

* * *

٨ ـ المفاجأة ..

صعدت (نهال) فى درجات سلم عيادة (فؤاد) فى مرح ..

كان قلبها يرقص فرحاً وهى تحمل إليه موافقة والدتها على مقابلته فى المساء ..

لم تحاول إخفاء شخصيتها وهى تذهب لمقابلته هذه المرة ..

تركت المارة جميعاً يتفرسون فى ملامحها ، ويهتفون باسمها فى إعجاب وسعادة ..

كانت تريد أن يعرف العالم كله قصة حبها للدكتور (فؤاد) ...

كانت تريد أن تفخر به ، ويفخر بها ..

استقبلها (تمورجى) العيادة فى فرح ، وسمح لها بالدخول إلى مكتب (فؤاد) على الفور ..

كانت تتوقع أن يستقبلها (فؤاد) بابتسامته التى تحمل اللهفة والفرح كعادته ..

ولكنه لم يفعل ..

توقفت فى دهشة حينما رأت نظراته الغاضبة ، ووجهه الشاحب ..

تسلل القلق إلى قلبها وهى تقترب منه ، وتسأله :

- ماذا حدث يا (فؤاد) ؟

لم تستطع أن تقترب منه إلى النهاية ...

أوقفتها تلك النظرة المخيفة المطلة من عينيه ..

ازدردت لعابها فى صعوبة وهى تقول فى صوت متحشرج :

- ماذا حدث ؟

جاءت إجابة (فؤاد) فى كلمة واحدة ..

كلمة مزقت قلبها إرباً ..

كلمة أضاعت منها كل الأمل والسعادة ..

قال فى برود يحمل الكراهية والغضب والألم :

- خائنة .

تراجعت كالملسوعة ..

تراجعت واتسعت عيناها فى رعب ..

صرخت فى ألم :

- ماذا تقصد بكلمتك هذه ؟

ألقى الصور فى وجهها وهو يصرخ :

- هذا ما أقصده .

تناولت الصور بأصابع مرتجفة ، وقلبتها فى كفها ، دون أن يبدو فى وجهها أثر للخجل أو الخزى ، ثم رفعت إليه عينين حائرتين ، وسألته :

- ماذا يعنى هذا ؟

سألها فى غضب :

- هذا سؤال تحتفظين أنت بإجابته .

تنبهت فجأة إلى ما يعنيه ، فهتفت فى استنكار :

- إنك لا تفهم شيئاً .

قاطعها فى حدة :

- لست أريد أن أفهم شيئاً .

صاحت فى ضراعة :

- لابد أن أشرح لك .

لوَّح بكفه فى غضب ، وقال :

- لن أسمع شرحك ، لن أصدق كلمة واحدة منه .

شعرت بطعنة فى أعماقها ..

أرادت أن تشرح له الأمر ، لولا أن دخل (التمورجى) فى هذه اللحظة ، وارتبك حينما لمح الغضب المرتسم على وجهيهما ، إلا أن (فؤاد) صرخ فى وجهه :

— ماذا تريد ؟ !

تلعثم المسكين وهو يقول :

— هناك ممثل سينمائى يطلب مقابلتك يا دكتور ، ويصر على أن الأمر عاجل للغاية .

سأله (فؤاد) فى حدة :

— من هو ؟

ازداد تلعثم الرجل وارتباكه وهو يقول :

— الأستاذ (أشرف خالد) .

برقت عينا (فؤاد) فى غضب ، وارتجف قلب (نهال) وهى تتساءل عن سبب قدوم (أشرف) ، ولكن (فؤاد) أشار إلى الرجل أن يحضر (أشرف) ، ولم تكد تمضى لحظات حتى ظهر (أشرف) على باب الغرفة ، وهو يبتسم ابتسامة جذابة ، قائلا :

— معذرة لقدومى المفاجئ يا دكتور (فؤاد) ولكن ....

بتر عبارته فجأة ، عندما وقع بصره على (نهال) ،

وظهرت الدهشة فى ملامحه ، فابتسم (فؤاد) فى سخرية مريرة ، وقال فى حنق :

— هل أدهشك وجودها ؟

مطّ (أشرف) شفتيه ، وقال :

— لقد أدهشنى ذلك فى الواقع ، ولكننى أعتقد أن ذلك أفضل .

شعرت (نهال) أنها عاجزة عن النطق ، وهى تنقل بصرها بينهما ، على حين قال (فؤاد) فى لهجة توحى بالغضب المكتوم :

— أراهن أنك هنا من أجل (نهال) .. أليس كذلك ؟

ابتسم (أشرف) وهو يقول :

— لست أنكر ذلك .

غمغم (فؤاد) فى حنق :

— يا للوقاحة !!

بدت الدهشة فى وجه (أشرف) لحظة ، ثم أطلق ضحكة قصيرة وهو يقول :

— يبدو أنك لم تفهم ما أعنيه يا دكتور (فؤاد) ، لقد أتيت حقًا من أجل (نهال) ، ولكن ليس بالمعنى الذى تقصده ، لقد جئت أصحح الأمور .

ثم مال نحو الدكتور (فؤاد) ، وسأله فى لهجة جادة :

– لقدقابلك الأستاذ(حاتم)هذا الصباح .. أليس كذلك؟

عقد (فؤاد) حاجبيه ، وغمغم فى حيرة :

– وماذا يعنيك فى هذا ؟

لوَّح (أشرف) بكفه ، وقال :

– يعنينى الكثير يا دكتور (فؤاد) ، إن (حاتم) يرفض فكرة زواج (نهال) ، ويحاول إفساد هذا الزواج بكل الوسائل المتاحة ، ولكن المشكلة هى أنه صنع منى جزءاً من خطته لإفساد الزواج دون إرادتى .

هبطت كلماته كالثلج على قلب (نهال) ، على حين أشعلت نار الشك فى قلب (فؤاد) ، الذى هتف :

– ماذا تعنى ؟

ثم اختطف مجموعة الصور ، ودفعها إلى (أشرف) وهو يصرخ مستطرداً :

– وماذا تعنى هذه الصور ؟

تناول (أشرف) الصور فى هدوء ، وتأملها لحظة ، ثم طوَّح بها فوق المكتب ، قائلاً :

– إنها مجموعة لقطات رائعة ، ولكنها مأخوذة كلها

من مشاهد فيلم (دموع القمر) ، الذى نقوم فيه بدور شابَّين متحابَّين .

أحنت (نهال) رأسها ، وقالت فى ألم :

– هذا ما حاولت أن أشرحه لك .

احتبست الكلمات فى حلق (فؤاد) ، فلم يستطع أن ينطق حرفاً واحداً ..

اعتصره الندم والشعور بالخطأ ، حتى أنه خجل من مواجهة (نهال) ..

صرخ فى أعماقه أنه كان لا بد وأن يتروَّى ، قبل أن يتهمها بهذا الاتهام الخطير ..

ترى هل ستغفر له ؟ ..

منعه (أشرف) من مواصلة أفكاره ، عندما قال :

– كل ما أرجوه منكما هو ألا يعلم الأستاذ (حاتم) بقدومى إلى هنا .

شد (فؤاد)على يده فى قوة تعبر عن شكره،وهويقول:

– اطمئن يا أستاذ (أشرف) ، هذا أقل ما يمكننى أن أعبر به عن شكرى ، لقد أنقذتنى من الوقوع فى خطأ قاتل .

ابتسم (أشرف) ابتسامة هادئة ، لا تعبر عن تلك الفرحة الغامرة فى أعماقه ...

لقد أدى دوره فى براعة منقطعة النظير ، وضرب عصفورين بحجر واحد ..

كان هو صاحب اقتراح الصور .. ألقاه إلى (حاتم) ، وربح به رضاه ، وتقديره ..

وأفسده أمام (فؤاد) و (نهال) ، فضمن صداقتهما ، وامتنانهما ..

ضمن زواجهما ، وابتعاد (نهال) عن طريقه ..

لقد ربح هذه الجولة .. بل ربح المباراة بأكملها ..

أما (فؤاد) و (نهال) ، فقد بقيا صامتين ، لا يجرؤ أى منهما على مواجهة الآخر ، بعد انصراف (أشرف) ، ثم غمغم (فؤاد) فى لهجة ملؤها الاعتذار والندم :

- كيف حالك ؟

رفعت إليه عينين واسعتين يفيض منهما العتاب ، فاقترب منها فى خطوات مترددة ، واحتوى كفها الرقيق بين راحتيه ...

سرت رجفة دافئة فى جسدها مع لمسته ..

تأكدت أنها تحبه ، على الرغم من شكه فيها ...

وحاول هو أن يعتذر ..

حاول أن ينطق بكلمة واحدة تعبر عن اعتذاره ، ولكنه عجز عن ذلك ..

شعرت هى بما يعانيه ، فهمست فى رقة :

- لن أسامحك أبداً .

قالت العبارة فى دلال يعنى عكس ما تعنيه كلماتها تماماً ، فابتسم فى خجل ، وهمس :

- ترى هل تقبل والدتك استقبالى الليلة ؟

رقص قلبها فرحاً ، وارتعد صوتها وهى تهمس :

- بلا شك .. سيسعدها ذلك كثيراً .

لم تكن عبارتها مبالغة .. فلقد استقبلته والدتها بالفعل فى ترحاب وسعادة بعثا الاطمئنان فى قلبه ، وقادته إلى حجرة الاستقبال ، وهى تقول فى لهفة لم تحاول إخفاءها :

- كنت أشتاق لهذا اللقاء كثيراً يا دكتور (فؤاد) ، لقد حدثتنى عنك (نهال) كثيراً .

ابتسم فى حنان وهو يقول :

- إنها إنسانة رائعة .

ملأت ابتسامة الأم وجهها وهى تقول :

– هذا صحيح .

تلفت حوله يبحث عن (نهال) ، ثم سأل فى تردد :

– أين هى ؟

ضحكت الوالدة وهى تقول :

– إنها لم تنته من زينتها بعد ، لا ريب أنها ترتكب الكثير من الأخطاء ، إنها عصبية للغاية .

ابتسم وهو يقول :

– هذا طبيعى بالنسبة لظروفها .

سألته والدتها وهى تبتسم :

– هل تعنى كونها نجمة سينمائية ؟

هزَّ رأسه نفياً ، وقال :

– بل أعنى ظروف نشأتها كفتاة فقدت والدها وهى بعد فى الثالثة من عمرها .

عقدت الوالدة حاجبيها فى دهشة ، وقالت :

– ماذا تعنى ؟ ! .. لقد توفى والد (نهال) منذ خمس سنوات فقط ، وكانت حينئذ فى السابعة عشرةَ من عمرها.

شحب وجهه وهو يغمغم :

– ألم تعملى قرابة العشرين عاماً لتؤمنى لها العيش ؟

صاحت الأم فى دهشة :

– من أخبرك بهذا العبث ؟.. صحيح أن والد (نهال) لم يكن ثريًّا، ولكنه ترك لنا ما يكفى لحياة هانئة .. إننى لم أعمل يوماً واحداً فى حياتى ، ولم نكن فقراء مطلقاً ..

ازداد شحوب وجهه ، وسمع صوت (نهال) تهتف فى ذعر :

– أماه ! !

التفت إليها فى آلية ، وتضاعفت آلامه حينما نظر فى عينيها الواسعتين ..

كان الذعر واضحاً فى عينى (نهال) ..

وهناك .. بين تلك الألوان المتداخلة فى عينيها قرأ (فؤاد) اعترافاً ..

اعترافاً بأنها قد خدعته ..

* * *

٩ – الفـراق ..

غامت الدنيا فى عينى (فؤاد) وهو يقود سيارته على غير هدى ، فى طريق الكورنيش ..

لم يعد يذكر كيف غادر منزل (نهال) ...

لم يعد يذكر حتى الكلمات ، التى حاولت بها الدفاع عن نفسها ..

أى دفاع هذا ؟ .. وأى أمل لها فى غفرانه ؟ ..

لقد كان أحمق منذ البداية ..

منذ صدق دموعها الزائفة فى عيادته أول مرة ..

مخطئ هو من يصدّق دموع امرأة ..

أحمق هو من يقنع بدموع ممثلة محترفة ..

كيف نسى أنها صاحبة أشهر دموع فى السينما ؟

شعر أنه يكره فن التمثيل بكل صوره ..

ما أبرع أبناء هذا الفن فى الخداع !!

ما أسهل ما يذرفون الدموع !!

ولكن كيف خدعته دموعها ؟..

كيف خدعته وهو الخبير بالطبائع البشرية ؟..

ربما لأنها أثارت فى نفسه الندم ..

عاد يتذكر كيف كان شعوره ، عندما استقبلها و (حاتم) فى قاعة طعام ذلك الفندق الفخم ..

لقد شعر بالضيق– حينذاك – عندما رآها ترتدى ثوباً أحمر اللون ، براقاً يجذب الأنظار ..

أدهشه يومها ذلك الشعور بالضيق ، حتى أنه حاول إبعـاده عنه بأن ابتسم فى سخرية ، ورفض حتى النهوض لاستقبالها كما تقضى التقاليد ..

تلك التقاليد التى دفعته لاستقبالها بابتسامة عريضة ، وترحاب عندما جاءت إلى عيادته ..

لقد أتت إليـه – يومئذ – كمريضة ، وكان عليه استقبالها على نحو يبعث الارتياح والثقة إلى نفسها ..

ولكنها خدعته ..

أوقف سيارته فى منطقة بعيدة ، قليلة المارة ، وهبط منها يتأمل أمواج البحر فى ظلام الليل ..

شعر بالألم لأنه عاش حياته كلها بعيـداً عن الحب ومتاعبه ، وعندما أسلم قلبه إليه خدعته الإنسانة الوحيدة التى يحبها ..

هل كان يحبها حقاً ؟! ..

حاول أن يقنع نفسه أن مشاعره نحوها لم تكن تتجاوز العطف والشفقة ، ولكن طبيباً نفسياً بارعاً مثله، لم يكن بقادر على خداع نفسه ..

لقد أحبها فى صدق وعمق ...

أحبَّ أنوثتها ، ورقتها ، وضعفها ..

لقد أحبها ولن يحب غيرها حتى آخر أيامه ..

ولكنه لن يغفر لها خداعها له ..

لن يغفر أبداً ..

كان هو يتأمل موج البحر ، وهى تجلس صامتة واجمة فى ردهة منزل أمها ..

لم تجرؤ أمها على التفوُّه بكلمة واحدة ، وإن اعتصر قلبها حزناً على مشهد ابنتها ..

إن (نهال) تجلس دون حراك ، منذ غادر (فؤاد) المنزل دون أن ينطق بكلمة واحدة ..

عيناها الواسعتان شردتا بعيداً ..

شفتاها ازداد انفراجهما ، وفقدتا لونهما الأحمر ..

وجهها شحب حتى بات من العسير تمييز لونه الوردى الجميل ..

لم تنطق .. ولم تبك ..

أدهشها كثيراً أن ابنتها لم تبك ..

(نهـــال) نفسها لاحظت ذلك ، وكان الأمر محيراً لها كثيراً ..

أين ذهبت دموعها ؟..

أين ذهبت تلك الدموع ، التى كانت دوماً رهـن إشارتها ؟..

هل استنفدتها فى مشاهدها الحزينة ؟..

من العجيب أنها كانت تنجح دوماً فى استدعائها دون حزن حقيق ..

والآن تشعر بصعوبة بالغة فى البكاء ، على الرغم من كل هذا الحزن الذى يعتصرها ..

شعرت وكأنه لم يعد هناك ما يستحق أن تبكى من أجله ..

لقد فقدت (فؤاد) ، وفقدت معه كل شىء ..

لم تستطع الأم احتمال كل هذا الحزن فى قلب ابنتها ، فنهضت إليها ، وربَّتت على رأسها وهى تقول فى حنان :

– كل شيء نصيب يا بنيتى ، لا أحـد يدرى أين الخير فى الدنيا .

رددت وراء والدتها فى شرود :

– كل شيء نصيب .

ثم نهضت فى بطء ، وقالت :

– سأعد حقيبتى يا أماه .

سألتها أمها فى جزع :

– إلى أين يا (نهال) ؟

أجابت وهى تتجه إلى حجرتها فى آلية :

– إلى القاهرة يا أماه ، هناك عمل ينتظرنى .

أسرعت والدتها خلفها ، قائلة :

– فلنؤجل ذلك إلى الغد يا بنيتى ، لن يمكنك قيادة سيارتك الآن .

خيّل إليها أن (نهال) لم تسمع اعتراضها ، فقد بدأت تصف ثيابها فى حقيبتها فى هدوء بدا لوالدتها مثيراً للقلق ..

ترددت الوالدة لحظة ...

لم يطل ترددها أكثر من هذه اللحظة ، ثم هتفت :

– سأرافقك إلى القاهرة ، سأقيم معك هناك .

كانت (نهال) تتمنى هذا منذ انتقلت لسكنى العاصمة ..

كانت تتمناه فى كل يوم ، وساعة ، ولحظة ..

ولكنها لم تشعر اليوم بالفرح ..

كأن فقدانها (فؤاد) قد أضاع من قلبها كل شعور بالسعادة ..

كل ما فعلته هو أنها ردَّدت فى شرود :

– سيكون هذا رائعاً .

لم يفارقها شرودها وهى تقود سيارتها بعد منتصف الليل إلى القاهرة ، ولكن خلو الطريق الصحراوى عاونها على الوصول فى سلام إلى هناك ..

كان الفجر قد انبلج حينما دخلت إلى شقتها الفاخرة ، فى أرقى أحياء القاهرة ، بصحبة والدتها ، وتوجهت من فورها إلى الهاتف ، وأدارت قرصه فى بطء وهدوء ..

ظلت والدتها تراقبها فى جزع وقلق .. كانت (نهال) بحالها هذا تثير مخاوفها ..

كانت تتمنى لو أنهـا انفجرت بالبكاء ، لتلقى عن كاهلها كل هذا العبء ، كانت تعلم أن البكاء سيخفف الضغط عن أعصاب (نهال) ، ولكن (نهال) لم تفعل ..

أدارت قرص الهاتف ، وسمعت رنين الطرف الآخر ..

قبل أن يتكرر الرنين التقط أحدهم سماعة الهاتف الآخر ، وقال :

– هنا (حاتم فوزى) ، من المتكلم ؟

أجابته فى هدوء :

– أنا (نهال) يا (حاتم) .. هل أيقظتك ؟

بدا صوته مفعماً بالسعادة والظفر وهو يهتف :

– (نهال) .. كيف حالك ؟ .. إننى لم أذهب إلى فراشى بعد .

بادرته فى لهجة جافة :

– متى ستبدأ تصوير المشاهد الباقية من (دموع القمر) ؟

هتف فى فرح :

– غداً لو أردت .

أجابته فى ضيق :

– ولم لا نبدأ اليوم ، إننى أشعر بالضيق والملل ، لن أحتمل يوماً بلا عمل .

قال فى مرح :

– أنت تعلمين كم يحتاج إرسال أوامر التصوير والعمل و ...

بتر عبارته لحظة ، ثم عاد يستطرد :

– حسناً .. يمكننا أن نبدأ فى الثالثة بعد الظهر .

أجابته فى اقتضاب :

– وهو كذلك .

أنهى (حاتم) الاتصال وهو يكاد يطير فرحاً ..

لم يكن يحتاج إلى الكثير من الذكاء ، ليعلم من لهجتها أن زواجها من (فؤاد) قد فشل ..

تصور أن خطته قد نالت نصيبها من النجاح ، فتضاعفت ثقته فى عبقريته ..

نسى فى تلك اللحظة أن الخطة تعود إلى (أشرف خالد) ..

أقنعه غروره أنها كانت خطته هو ، وإن جاءت على لسان الممثل الشاب ..

لم يكن يعلم أن القدر هو صاحب هذا الفشل ..

ذلك القدر الذى يحلو له كثيراً العبث بالقلوب ..

سار نحو مرآة كبيرة تتوسط الحائط الرئيسى فى بهو

منزله ، ووقف يتأمل وجهه فيها بسعادة ، ثم قال وكأنه يحادث صورته المنعكسة على المرآة :

ـ لقد أثمرت الخطة .. إن (حاتم فوزى) لا يخسر أبداً .

خيل إليه أن صورته المنعكسة على المرآة قد أجابته :

ـ أنت عبقرى .

دار بينه وبين غروره حديث خيل إليه أنه يسمعه واضحاً :

ـ لقد صنعت أنا (نهال حمدى) ، ولن يحوزها غيرى .

ـ أنت أجدر الناس بها .

ـ ماذا فعل لها هذا الأحمق (فؤاد) حتى يتصوَّر أن يمتلكها ؟

ـ لقد منحتها أنت كل شىء .

ـ إذا كان لا بد من زواجها ، فلأتزوجها أنا .

ـ أنت تستحقها .

ـ الفنانة لا تصلح إلا لفنان مثلها .

ـ ستكونان ثنائيًّا رائعاً .

توقف حديثه مع نفسه عند هذه النقطة ، وسرح ببصره محاولا تخيل صورة زفافه بـ (نهال) ..

التقط أحد صورها ، وبدأ يتأمل ملامحها كرجل يتأمل أنثى ، لا كمخرج يرى ممثلته الأولى ..

أدهشه كل هذا القدر من الجمال والجاذبية ، اللذين تتمتع بهما (نهال) ..

تساءل كيف لم يشعر بهذه الأنوثة الطاغية من قبل ..

وجد نفسه يصرخ فجأة فى تحد وإصرار :

ـ لن يتزوجها غيرى .. لن تكون لسواى .

١٠ - الفشل ..

— (ستوب) .. سنعيد هذا المشهد .

هتف (حاتم) بعبارته هذه فى حنق واضح ، فتصاعدت دماء الغضب والخجل إلى وجنتى (نهال) وهى تقول :

— هل سنعيده للمرة الرابعة ؟

صاح فى غضب :

— وماذا نفعل ؟.. إنك تفسدينه فى كل مرة .

احتقن وجهها فى غضب ، ولكنه لم يلحظ ذلك ..

ظلّ يواصل صياحه ، قائلا :

— خبرينى بالله عليك أين ذهبت دموعك ؟.. إنك تبدين شاردة طول الوقت .. أين ذهبت براعتك وموهبتك ؟..

كان يسألها سؤالا حارت فى البحث عن إجابته منذ ثلاثة أسابيع ..

منذ ذلك اليوم الذى عادت فيه إلى القاهرة ..

منذ فقدت (فؤاد) ..

يبدو أنها فقدت معه موهبتها ودموعها ..

كانت دموعها فى السابق رهن إشارتها ، واليوم هى عسيرة المنال ..

حاولت أكثر من مرة أن تتقمص دورها ، وتنفعل به كالسابق ..

كانت تنجح فى أداء الدور ، حتى تصل إلى اللحظة التى ينبغى فيها أن تذرف الدمع الغزير ..

عند هذه النقطة كانت تتذكر الدموع التى خدعت بها (فؤاد) ، والتى أفقدتها إياه ..

وكانت هذه الذكرى تدفع دموعها بعيداً ..

تدفعها إلى قلبها ، بعيداً عن عينيها ..

لم تذق عيناها طعماً للدموع منذ فقدته ..

لم تعد هى (نهال حمدى) ملكة الدموع ..

كانت تعلم أن سؤال (حاتم) يدور فى رأس كل العاملين بالأستوديو ..

كانت تعلم أن فشلها فى ذرف الدموع يدهشهم ..

سمعت منتج الفيلم البدين يقول فى صوت مرتعد ، وكأنه ينعى النقود التى أنفقها :

— ربما تحتاج بطلتنا إلى عطلة قصيرة .

تمتم (حاتم) بعبارات غير مفهومة ، وإن بدا واضحاً أنها تعبر عن سخطه ، على حين قال (أشرف) وهو يحاول مداراة سعادته بفشلها :

ـ نعم .. أعتقد ذلك .

لم تنطق هى بكلمة واحدة ..

اندفعت إلى حجرتها التى يحمل بابها رسماً لنجمة متألقة ، ولحق بها (حاتم) ..

كان يعلم ما تعانيه ، وكان يحاول استغلال تلك الفرصة ..

قال فى لهجة حانية مصطنعة :

ـ معذرة يا عزيزتى (نهال)، لقد فقدت أعصابى و..

قاطعته قائلة :

ـ لا عليك يا (حاتم)، إننى لم أجد دورى حقًّا ..

قال وهو يتظاهر بالتعاطف معها :

ـ ليس من السهل أن يذرف المرء دموعه فى أية لحظة ، ما رأيك لو استخدمنا بعض نقاط الجلسرين ؟.. إنها تعطى دموعاً صناعية و ....

لم تسمع باقى عبارته ..

كانت تعلم أن كلماته تعنى أنها لم تعد قادرة على إعطاء دموعها كسابق عهدها ..

وكان هذا يعنى لها الفشل ..

تنبهت على صوته يقول فى ترقب :

ـ ما رأيك ؟

أجابته فى ضيق :

ـ لن أستخدم دموعاً صناعية .

ضحك وهو يقول :

ـ إننى أسألك عن رأيك فى تناول العشاء معى هذه الليلة .

حاولت أن تبتسم وهى تقول :

ـ لست أعتقد أننى سأملك الشهية الكافية ، ولا ..

قاطعها فى حماس :

ـ هل تراهنين ؟.. سأصحبك إلى مطعم جديد ، يقدم صنفاً مبتكراً من الطعام ، يسيل لمرآه اللعاب .

حاولت أن تعترض، ولكنه قطع عليها كل الطرق ، حتى وجدت نفسها مجبرة على قبول دعوته ..

ذهبا معاً إلى ذلك المطعم فى المساء ..

لم تنتبه إلى كل نظرات الإعجاب من حولها ..
لم تنتبه إلى الهمسات التى يتناقلها رواد المطعم ، والتى تحمل اسمها ..
كان عقلها يسبح فى عالم آخر ..
أعادت إليها تلك الدعوة ذكرى ذلك العشاء ، الذى تناولته بصحبة (فؤاد) ، فى ذلك المطعم الهادئ على شاطئ البحر ..
تذكرت حنانه ودفأه ، ووسامته فى تلك الليلة ..
تذكرت كلماته الحنون الرصينة يومئذ ...
كم تمنت لو أنه كان هو الذى يجلس الآن على المقعد المجاور لها ، بدلا من (حاتم) ..
لاحظ (حاتم) شرودها ، فقال :
ــ ماذا بك ؟
تنبهت من ذكرياتها على سؤاله ، فأجابته فى اقتضاب :
ــ لست أدرى .
عاد يسألها فى إصرار :
ــ لِمَ تبدين شاردة ؟
أجابته وهى تحاول أن تهرب بعينيها من عينيه الفاحصتين :

ــ ربما كان بعض التعب والإرهاق ..
لم يكن يحتاج إلى هذا السؤال فى الواقع ..
كان يعلم أنها تعانى كثيراً منذ افتراقها عن (فؤاد) ..
كان يعلم أن هذا هو السبب الأول لفشلها فى أداء مشاهدها ..
كان يعلم ولكنه تجاهل ذلك ..
أراد أن يجعلها تظنه مهتمًا بأمورها ..
أرادها أن تتصوره حنوناً شغوفاً ..
عاد يقول فى اهتمام :
ــ لِمَ لا تحصلين على إجازة أخرى ؟
أجابته فى شرود :
ــ أعتقد أن العمل أفضل .
هتف فى حماس :
ــ الإجازة جزء من العمل .
تطلعت إليه فى دهشة ، فاستطرد :
ــ حتى الآلات تحتاج إلى الراحة .
ابتسمت ابتسامة باهتة وهى تقول :

– البشر أقوى من الآلات ، بدليـل أنهم صنعوها ولم تصنعهم .

– من قال هذا ؟.. هل بلغ عقل البشر يوماً ما بلغه العقل الإليكتروني ؟

– لا شك في ذلك ، لقد صنع البشر ملايين العقول الإليكترونية ، ولم نسمع عن عقل إليكتروني واحد صنع بشراً .

– ربما نسمع فيما بعد .

– مستحيل .. إنني أومن أن ما صنعه الله – سبحانه وتعالى – لا يقـدر أن ينافسه فيه مخلوق مهما بلغت عبقريته وقدرته .

لوّح بكفه وكأنه يوقف الحديث ، ثم مال نحوها ، وقال :

– دعينا من هذه الأمور الفلسفية ، أأنت سعيدة ؟

أدهشها سؤاله ، فترددت طويلا ، مما دفعه إلى الإجابة قائلاً :

– لست سعيدة بالطبع ، وإلا ظهر هذا في ملامحك وحديثك .

أساءت فهم عبارته ، فأسرعت تقول :

– ربما كنت شاردة يا (حاتم) ، ولكن هذا لا يعني أن جلوسنا معاً يضايقني .

ابتسم في ثقة وهو يقول :

– هل تعلمين ماذا ينقصك يا (نهال) ؟

كادت تندفع لتخبره أن ما ينقصها هو (فؤاد) .. ينقصها حنانه وحبه ودفؤه ..

كادت تهتف بذلك ، ولكنها تراجعت ، وهمست في شحوب :

– ماذا ؟

فاجأتها إجابته ، حينما قال بلا مواربة :

– الحبّ .

غمغمت في قلق :

– الحب ؟!

هتف في حماس :

– بالطبع .. إنه ذلك العطر الذي يمحو رائحة التوتر والقلق من حياتنا .

سألته في دهشة :

– ولكنك قلت مسبقاً إن الزواج يدمر الفنان .

كادت تفلت من بين شفتيه عبارة اعتادها طويلا .. كاد يقول فى سخرية :

– وما علاقة الحب بالزواج يا عزيزتى ؟

ولكنه أوقف العبارة قبل أن تقفز إلى شفتيه ، واستبدل بها عبارة أخرى تقول :

– هذا يتوقف على الزواج يا (نهال) .

ازداد ميله نحوها ، حتى كاد يلامس وجنتها بأنفه وهو يتابع ، قائلا :

– زواج الفنان بالفنانة لا يفشل أبداً .

لم تنتبه إلى مغزى كلماته ، فقالت فى بساطة :

– من قال هذا ؟.. إننا نسمع كثيراً عن زيجات فشلت بين زملائنا فى الوسط الفنى .

هتف فى استنكار :

– إنها حالات شاذة .

ابتسمت وهى تقول :

– على العكس من ذلك ، أراها أكثر من أن تكون

شاذة ، بل إن الشذوذ الحقيقى فى هذا الوقت هو استمرار زواجهما .

شعر أن هذا الحديث سيقوده بعيداً عن هدفه ، فقال :

– هل تصوَّرت نفسك يوماً زوجة لفنان ؟

أرادت أن تخبره أنها لم تتصور نفسها يوماً زوجة لرجل آخر غير (فؤاد) ..

أرادت أن تخبره بذلك ، ولكنها قالت فى صوت خفيض :

– عمل الرجل الذى أتصوره زوجاً لا يهمنى ، فما يجذب المرأة فى الرجل ليس عمله ، ولكن رجولته ، وحنانه ، وشهامته ، وحبه .

صوَّر له غروره أنه يحمل كل هذه الصفات ، ورأى أنه لم يعد هناك داع لإضاعة المزيد من الوقت ، فتطلع إلى عينيها مباشرة ، وسألها فى كلمات قوية :

– (نهال) .. هل تقبليننى زوجاً ؟

* * *

١١ ـ الحيرة ..

تبدلت حياة الدكتور (فؤاد) كثيراً ، منذ ذلك اللقاء الأخير بينه وبين (نهال) ..

لم يعد ذلك الرجل الرصين الهادئ ، الذى يتغنى الجميع بحسن تهذيبه ..

صار عصبيًا ، حاد المزاج ، سريع الغضب ..

وكان أبرز مظاهر هذا التبدل اهتمامه الزائد بمطالعة كل ما ينشر عن الفن السينمائى ..

كان يلتهم الأخبار الفنية فى الصحف والمجلات التهاماً ، ويتابعها فى شغف ..

كان قلبه يخفق كلما رأى واحدة من صور (نهال) ، التى افتنّ فيها المصورون ، لإبراز جمال عينيها وروعتهما ..

كانت ما تزال تملأ كيانه ، وترقد فى أعماقه ..

لم يفارق حبها قلبه طوال ذلك الشهر الذى مضى ، منذ آخر لقاء بينهما ..

ذلك اللقاء الذى يثير الحسرة فى قلبه كلما تذكره ..

بدأ عقله يرسم صورة جديدة لها ، بعد أن اندملت

جراح قلبه ، وكثيراً ما دار بينه وبين عقله جدل طويل فى ظلام الليل حولها :

ـ لماذا تطلب منها أن تكون ملاكاً ؟

ـ لست أريدها ملاكاً ، ولكننى أرفضها شيطاناً .

ـ شيطاناً ؟! .. يا لك من مبالغ !!

ـ لقد خدعتنى .

ـ الخداع من شيم النساء ، إنه يؤكد ضعفهن .

ـ ما علاقة الضعف بالخداع ؟

ـ علاقة وثيقة ، فالأقوياء لا يحتاجون إلى الخداع ، إنهم يواجهون مشكلاتهم فى وضوح .

ـ ولكن ؟!

ـ ولكن ماذا ؟.. أنت نفسك قلت إنها تبحث عن الأمان .

ـ قلت هذا بعد سماع قصتها الكاذبة .

ـ ليست كلها كاذبة ، لقد فقدت والدها بالفعل .

ـ لقد فقدته وهى فى السابعة عشرة من عمرها .

ـ لقد فقدته إذن ، وهى فى السن التى تحتاج فيه إلى وجوده بشدة .

– ولكن لماذا كذبت ؟

– بحثاً عن الأمان ، لقد رأتك تسخر منها ، وصوَّر لها خوفها أنك أصبحت تمثل خطراً يتهدد مستقبلها ، وأرادت أن تربحك صديقاً لا عدوًّا .

– صديقاً لا عدوًّا ؟ !

– نعم .. لقد أرادت أن تنسج قصة كاذبة تستدرّ بها عطفك ، ولكنها دون وعى منها أعلنت مشكلتها الحقيقية .. البحث عن الأمان .

– لقد تركتها ..

– أخطأت .. لقد أحبتك بعد ذلك حقًّا .. قلبك يشعر بذلك ، ولكن عقلك يعانده ، لم لا تستسلم لعواطفك ، العقل قد يضلّ أحياناً ، ولكن القلب صادق دائماً .. هذه هى الفطرة .

– ولكننا افترقنا ..

– إنها تحتاج إليك الآن أكثر من أى وقت مضى .

ظل (فؤاد) يحاور نفسه كثيراً ، وتضاعفت الحيرة فى أعماقه ..

لأيهما يخضع ؟.. لعقله أم لقلبه ؟..

نفس هذا السؤال كان يدور فى عقل (نهال) ..

لم تفرح أمها كثيراً ، حينما أخبرتها رغبة (حاتم) فى الزواج منها ..

كانت الأم الطيبة تعلم أن هذا الزواج يختلف تماماً عن زواجها من (فؤاد) ..

الزواج من (فؤاد) كان بمثابة أمل فى أن تفارق ابنتها عالم الفن والسينما ..

ذلك العالم الذى حرمها منها طويلا ..

أما الزواج من (حاتم) ، فهو انغماس فى هذا العالم ..

(حاتم) نفسه لم يكن يبعث الراحة فى قلب الأم كما يفعل (فؤاد) ..

(نهال) أيضاً كانت تشعر بذلك ..

لقد أدهشها مطلب (حاتم) ، وأثار فى قلبها حيرة لا تنتهى ..

إن أحد أهم طموحاتها كفتاة أن تتزوج ، وتصبح أمًّا لصغار ترعاهم ..

عادت تتذكر كيف رقص قلبها فرحاً حينما طلب منها (فؤاد) الزواج ..

حاولت أن تقارن شعورها – يومئذ – بمشاعرها الآن، فوجدت بينهما هوة شاسعة ..

لأول مرة فى حياتها تشعر برغبتها فى الارتماء بين أحضان أمها ..

شعرت أنها تحتاج إلى مشورتها وعطفها وحنانها ..

لم تحاول كبت هذا الشعور كما كان يحدث فى الماضى ..

رفعت عينيها الواسعتين إلى أمها ..

رفعتهما بكل مايملؤهما من حيرة وضراعة، وعذاب ..

حمل صوتها كل آلامها وهى تهمس :

– أماه .

ارتجف قلب الأم، حينما سمعت نداء ابنتها ، وانتفضت وهى تهتف فى لهفة :

– لبيك يا بنيتى .

همست (نهال) فى صوت يشى بعذابها وحيرتها :

– ماذا أفعل ؟

فجر هذا السؤال كل عواطف الأم ..

فجر أمومتها ، ولهفتها وحبها ، وحنانها ..

قفزت من مقعدها ، وأسرعت تحيط ابنتها بذراعيها

فى حنان ، وكأنها تحميها شر الأقدار ، وهتفت فى حنو :

– افعلى ما يمليه عليك قلبك يا (نهال) .

غمغمت (نهال) وكأنها تحاول إقناع نفسها :

– لابد للفتاة من أن تتزوج .. أليس كذلك ؟

فهمت الأم ما تقصده ابنتها ، فقالت وهى تضمها إلى صدرها :

– هذا صحيح ، ولكن عليها أن تختار الرجل المناسب .

قالت ، ولأول مرة بلا مواربة :

– كان (فؤاد) هو الرجل الوحيد الذى يناسبنى يا أماه .

– من يدرى يا بنيتى ؟.. ربما .

– و (حاتم) يا والدتى ؟

– هل تشعرين نحوه بأى نوع من العاطفة ؟

– مجرد شعور التلميذ نحو أستاذه .

– هذا لا يكفى للزواج .

– ليس أمامى سواه .

– من قال هذا ؟.. مئات هم من يرجون نظرة واحدة من عينيك .

– ولكن ..

– لا تخدعى نفسك يا بنيتى ، إنك لا تحبين (حاتم) ، ولكنك تفكرين فى الزواج منه لينسيك (فؤاد) ، وهذا لن يكون ، على العكس سيفجر هذا كل عواطفك نحو (فؤاد) ، ستقارنين بينهما فى كل لحظة .

صمتت (نهال) طويلاً عند هذه النقطة ...

تنبهت لأول مرة إلى حكمة أمها ، وخبرتها ..

وجدت نفسها تزداد التصاقاً بصدر أمها ، وتقبلها فى وجنتها بحرارة ، وتهتف من أعماقها :

– لقد أخطأت فى حقك كثيراً يا أماه .

خيل إليها أن صوت أمها جاء يحمل نهراً من الحنان والدفء وهى تقول فى همس :

– الأم بحر من المغفرة يا بنيتى .

انتاب (نهال) شعور جارف بالارتياح ..

شعرت أن حنان أمها الجارف قد غسل آلامها وعذابها وحيرتها ..

شعرت أنها أصبحت أقوى على الاختيار ، وأقدر ..

ذهبت هذه المرة إلى (حاتم) وهى تشعر بالقوة ..

استقبلها هو بابتسامة مغرورة واثقة ، وقال :

– كيف حالك يا نجمتنا الساطعة ؟.. هل ذهب توترك ؟

ابتسمت فى راحة وهى تقول :

– نعم .. أصبحت أحسن حالاً .

ازدادت ابتسامته غروراً ..

تصوَّر أنها جاءت تعلن موافقتها على الزواج منه ..

خدعه هذا الشعور ، فتظاهر باللامبالاة وهو يقول :

– متى يمكنك بدء التصوير ؟

لم تتردد وهى تقول :

– غداً إذا أردت .

صمت لحظة وهو ينتظر منها أن تخبره بموافقتها ، ولكنها لم تفعل ..

انتابه بعض الغضب ، مبعثه غروره وأنانيته ..

كان ينتظر منها أن تأتى إليه زاحفة ، وتشكره على طلبه الزواج منها ..

أساءه أنها لم تشر إلى هذا مطلقاً ، فقال وقد سرى فى صوته بعض الغضب :

– هل اتخذت قرارك ؟

ابتسمت فى هدوء ، وقالت :

ـ نعم .

لم يستطع كتمان لهفته وهو يسألها :

ـ وبعد ؟!

صمتت (نهال) لحظة ..

أرادت أن تعلن رفضها بوسيلة مهذبة تجنبه الحرج ..

كان قلبها الطيب قد تناسى محاولته إفساد زواجها بـ (فؤاد) ..

ربما تناست هذا ؛ لأنه لم يكن السبب الرئيسى فى الفراق ..

قالت فى هدوء وهى تبحث عن أثر كلماتها فى وجهه :

ـ لقد فكرت طويلا يا (حاتم) .

أساءته عبارتها ..

كان يتصور أنها ستوافق على الفور ..

لم يكن يريد منها حتى أن تفكر فى الأمر ..

كان يريدها أن تفرح لمطلبه ، وتستسلم له طواعية بلا قيد أو شرط ..

بلا تردد أو تفكير ..

استمع فى ضجر إلى كلماتها وهى تستطرد :

ـ صحيح أن زواج الفنان بالفنانة مثاليًّا ، ولكنه ليس وحده مبرراً لنجاح حياة عائلية سعيدة .

جف حلقه مع كلماتها ، ووجد نفسه يهتف فى حدة :

ـ ماذا تعنين ؟

ترددت لحظة ، ثم أجابته :

ـ أنت إنسان ممتاز يا (حاتم) ، ولكننى لا أستطيع الزواج منك ، ربما كان من الأفضل أن نظل صديقين و...

أوقفتها مفاجأة مذهلة ...

مذهلة بكل ما تحمله الكلمة من معان ..

أوقفتها صفعة قوية ، هوى بها (حاتم) على وجهها ..

١٢ ـ الهروب ..

انفرجت شفتا (نهال) ، واتسعت عيناها فى ذهول..

رفعت كفها الرقيق تتحسس موضع الصفعة ، وهى تحدق فى وجه (حاتم) غير مصدقة ..

أدهشها صراخه الجنونى وهو يقول :

ـ أيتها الحقيرة .. هل تجرؤين على رفض (حاتم فوزى) ؟

كانت كلماته تحمل تأكيداً لغروره الزائد ، وأنانيته المفرطة ، ولكنها لم تتفوه بكلمة ، تركته يواصل صراخه، قائلا فى غضب جنونى :

ـ لقد نسيت من أنت .. أنا الذى صنعتك .. أنا الذى جعلت من اسمك علماً .. أنا ....

قاطعته فى غضب ، بعد أن أفاقت من ذهولها :

ـ أنت لا شىء .. أنت مجرد إنسان تافه مغرور .

صرخ كالمجنون :

ـ لا يحق للصنيعة انتقاد صانعها ، أو رفضه .

ـ أى صنيعة هذه ، التى تتحدث عنها ؟

ـ لقد صنعتك أنا ، لن يمكنك إنكار ذلك .

ـ الله ـ سبحانه وتعالى ـ هو الذى خلقنى ، وهو الذى وهبنى تلك الموهبة فى التمثيل ، وكل ما فعلته أنت هو أن كنت وسيلة من وسائله ـ سبحانه ـ لتقديم هذه الموهبة للناس ، ولو لم تفعل لفعلها غيرك .

ـ أنت مجنونة .

ـ بل أنت المجنون ، لقد تصورت نفسك إلهاً تمنح وتمنع ، تهبّ وتجبّ ، لقد أفقدك الغرور عقلك .

ـ سأحطمك كما صنعتك ، سأمحو من الأذهان اسم (نهال حمدى) تماماً .

ـ ما زال غرورك يصوِّر لك أنك قادر على ذلك ، ليس من السهل أن تطفىء نجماً .

ـ يمكننى أن أصنع نجماً آخر يخفى سطوعه ضوء النجم الأول .

ـ حاول يا (حاتم) إننى لن أخسر شيئاً .

تركته بعد أن صوَّبت إليه نظرة تفيض بالاحتقار والاشمئزاز ..

انطلقت بسيارتها إلى منزلها ، وهى تلعن اليوم الذى اقتحمت فيه هذا المجال ..

لعنت شهرتها ، وتألقها ، وموهبتها ..

ولكنها لم تبك ..

تجمدت الدموع فى عينيها ، ولكنها انهمرت غزيرة فى قلبها ..

ولكن أمها رأتها ..

رأت تلك الدموع التى لم يرها الآخرون ..

سألت ابنتها فى جزع :

– ماذا حدث ؟

أخبرت أمها بكل شىء فى بساطة ..

أخبرتها حتى عن صفعة (حاتم) ..

هتفت الأم فى غضب واستنكار :

– هذا الحقير .. كيف يجرؤ ؟

ولكنها لم تستطع منع تلك السعادة التى تألقت فى قلبها ..

أسعدها مصارحة ابنتها لها بكل شىء ..

أسعدتها تلك الرابطة الجديدة ، التى نشأت بينها وبين ابنتها ..

أسعدها ذلك الوضوح والصراحة اللذان تمنتهما طويلا ..

أسعدها أن هذه الصفعة ستغير رأى ابنتها فى الفن كثيراً ..

ولكنها كرهت الرجل الذى صفع ابنتها ..

كرهته ، وشكرته فى الوقت نفسه ..

هتفت تحاول محو حزن ابنتها ، وغضبها :

– لن يمكنه الإساءة إليك .

قالت (نهال) فى ضجر :

– فليفعل .. لم يعد ذلك يهمنى .

لم تكد تتم عبارتها حتى ارتفع رنين الهاتف ، فالتقطت سماعته ، وقالت فى آلية :

– (نهال حمدى) .. من المتحدث ؟

جاءها صوت المنتج البدين مرتبكاً ، يقول :

– سعدت صباحاً يا آنسة (نهال) ، كيف حالك ؟

أدركت من ارتباكه وتلعثمه أنه يريد ، أن ينقل إليها خبراً محرجاً ، فقالت فى برود :

– ماذا وراءك ؟

تردد المنتج لحظة ، ثم قال :

– أريد أن أدعوك للعشاء فى منزلى ، لقد دعوت الأستاذ (حاتم) أيضاً ، فى محاولة لتصفية الخلاف بينكما .

أدهشها انتقال الخبر إليه بهذه السرعة ..

ما أسرع ما تنتقل الأخبار فى عالم الفن !!

قالت فى برود ، يخالف الغضب الذى يعصف بأعماقها :

– لا فائدة ، لن ينصلح ما بيننا أبداً .

قال المنتج البدين فى لهجة ذات مغزى :

– أعتقد أنه من الأفضل (لك) أن ينصلح الأمر .

ضغط على حروف كلمة (لك) ، وكأنه يبعث من خلال الكلمة رسالة ما ، فقالت فى حنق :

– ماذا تعنى بأنه من الأفضل لى ذلك ؟

صمت الرجل لحظة وكأنه يخشى إخبارها ما لديه ، ثم قال فى تردد :

– لقد تحدث إلىّ الأستاذ (حاتم) هاتفياً ، وكان ثائراً للغاية ، وخيرنى بين إخراجه الفيلم ، وقيامك ببطولته .

سألته فى غضب :

– وبم أجبته ؟

عاد الرجل إلى تردده لحظة ، ثم قال :

– معذرة يا آنسة (نهال) ، ولكن اسم الأستاذ (حاتم) على الفيلم يضمن آلاف الجنيهات عبر شركات التوزيع .. صحيح أن اسمك يعنى الكثير ، ولكن ....

لم يستطع إكمال عبارته ..

منعه الحرج والارتباك ..

ولكنها فهمت ..

فهمت أنه لا يستطيع التخلى عن المخرج الذى لا يفشل له فيلم ..

أو لعله يحاول إثارة خوفها بهذا الادعاء ..

تساوى الأمران لديها ، فقالت فى غضب :

– ليكن .. إننى أعتذر عن مواصلة أداء هذا الدور .

غمغم الرجل فى ارتباك :

ــ ولكن ..

قاطعته فى حزم :

ــ هذا قرارى النهائى .

أنهت المكالمة فى حدة ، وجلست على المقعد المجاور للهاتف تلهث ، وكأنها قطعت عشرات الكيلومترات عدواً ..

كانت تشعر بالغضب والكراهية ..

كرهت عالم السينما والفن ..

لعنت هذا العالم الملىء بالزيف والخداع ..

يا له من عالم متناقض !!

لقد كافح (حاتم) ليرفعها إلى ذروة النجاح ، ثم ها هو ذا يحارب لإلقائها فى هوة النسيان ..

رفعها إلى قمة الأمل ، ثم يلقيها فى قاع اليأس ..

يا له من عالم !! ويا لهم من رجال !!

شعرت بكراهيتها لعالم السينما والفن تتضاعف مع كل دقيقة تمرّ ..

شعرت أنها لم تعد تحتمل هذا العالم القاسى ..

العالم الذى نسى الرحمة والتعاطف ..

عالم الألم والدموع ..

رفعت رأسها بغتة إلى أمها ، وقالت فى لهجة تنم عن الحزم :

ــ لقد اتخذت قرارى يا أماه .

سألتها أمها فى قلق :

ــ أى قرار يا بنيتى ؟

قالت دون أن يطرف لها رمش واحد ، ودون أن يبدو أى أثر للتردُّد أو الحيرة فى صوتها الحازم :

ــ سأعتزل .. سأعتزل السينما تماماً .

١٣ - الدموع ..

تفجر خبر اعتزال (نهال حمدى) فى الأوساط الفنية كالقنبلة ..

تحدثت مصر كلها عن النجمة الشابة ، التى قررت الابتعاد عن الوسط السينمائى بعد أن كادت تتبوأ عرشه ..

تصوَّر البعض أن هذا الخبر لا يعدو كونه نوعاً من الدعاية ، لفيلمها الجديد (دموع القمر) ..

خمسة أشخاص فقط كان هـذا الخبر يعنى لهم أكثر مما يعنيه للآخرين ..

شعر (حاتم) أنه يذوق أول هزيمة فى حياته ..

كان يتمنى أن يحطم هو (نهال) ، فحطمته ..

كان يظن أنهـا ستعلن استسلامهـا ، وتركـع تحت قدميه متوسلة عندما يحاربها فى مضمار الفن ..

هزمه انسحابها المفاجئ عن المضمار ، وكأنها تترفع عن الدخول فى هذا الصراع السخيف ..

تذوَّق مرارة الهزيمة للمرة الأولى ، ولم يفارق هذا الطعم فمه مطلقاً ..

تحطم غـروره ، وكبرياؤه الزائف أمام حزمهـا وحسمها ..

ظل إلى لحظة كتابة هذه السطور يلعن (نهال حمدى) التى أراقت ماء وجهه أمام الجميع ..

(أشرف خالد) شعر فجأة بفراغ رهيب ..

كان يتصـوَّر أن ابتعـاد (نهـال) عن الوسط الفنى سيتيح له ، ولأقرانه ، فرصة التفوق والظهور ، ولكنه تبين بعد انسحابها أنها كانت دافعهم للتفوق ..

كانت موهبتها المتألقة ، وعظمة أدائها يدفعانه لمزيد من الإبداع فى أداء أدواره ، فى محاولة منه للحاق بها ..

أما الآن فقد بدت الساحة خاوية ..

لم يعد هناك ما يدفعه للحماس والتفوق ..

لم يعد هناك مثل أعلى يحتذى به ..

شعر بالندم على رغبته السابقة فى إيذائها ..

تمنى فى هذه اللحظة لو أنه استطاع التكفير عما بدر منه نحوها ..

أخـذ شعوره بالنـدم يتضـاعف مع كل لحظـة ،

ورافقته حيرته فى البحث عن الوسيلة المناسبة لإراحة ضميره ..

والدة (نهال) شعرت بسعادة غامرة فى البداية ، ثم لم تلبث سعادتها أن تحوَّلت إلى القلق والحيرة ..

سعدت فى البداية لأن الله - سبحانه وتعالى - قد استجاب لدعواتها المتكررة ..

ثم أصابها القلق حينما أحست أن ابنتها لم تكن سعيدة بقرارها ..

شعرت أن (نهال) قد اتخذت هذا القرار بديلا عن الانتحار ..

كانت تعلم أن (نهال) تعشق فنها وموهبتها ..

تحيا بهما ، وتتألق لهما ..

فهمت يومها أن ابتعاد الفنان عن فنه هو بمثابة توقيع حكم الإعدام على مواهبه وحياته ..

بقدر ما تمنت يوماً أن تعتزل ابنتها الفن ، أصبحت تدعو الله - سبحانه وتعالى - أن يعيد ابنتها إليه اليوم ..

(نهال) نفسها شعرت بالخواء بعد اعتزالها ..

شعرت وكأنها اعتزلت نبضها ، وأنفاسها ، وروحها ..

كانت تعلم أنها لن تحتمل هذا طويلاً ..

إلا إذا غادرت مصر ..

واتخذت هذا القرار ..

أما (فؤاد) فقد بعث قرارها هذا فى نفسه ندماً عميقاً قويًّا ..

حدَّثته نفسه أنه المسئول الأول عن هذا ..

عاد عقله وقلبه يتجادلان فى حدة :

- أنت المسئول .. لقد تخليت عنها ، فدفعتها للتخلى عن كل شىء .

- إنه قرارها وحدها .

- لا يوجد قرار منفرد ، القرار هو نتاج مجموعة من العوامل والدوافع .

- لا يمكننى أن أطلب منها العودة إلى الفن .

- يمكنك على الأقل أن تمنع عنها الندم .

- وماذا أفعل ؟

- أذهب إليها .

- هذا محال .

- إنها تحتاجك اليوم أكثر من أى وقت مضى .

توقف هـذا الحـوار الداخلى فجأة مع رنين جرس الهاتف ، فالتقط سماعته ، وهمس فى شرود :

– هنا الدكتور (فؤاد صادق) .

جاءه من الطرف الآخر صوت (أشرف خالد) ، مفعماً باللهفة والقلق وهو يقول :

– أحمد الله أننى وجدتك يا دكتور (فـؤاد) ، إننى أحادثك بشأن (نهال) .

ارتجف قلبه قلقاً وهو يسأله :

– ماذا أصابها ؟

قال (أشرف) :

– إنهـا بخير ، ولكنها ستغادر مصر إلى (فرنسا) فى طائرة الرابعة عصراً ، ستغادرها إلى الأبد .

هتف فى ذهول :

– إلى الأبد .

قال (أشرف) فى صوت تغلب عليه رنة الندم :

– نعم يا سيدى ، لقد حصلت على عقد لعشرين عاماً فى مسرح (الكوميدى فرانسيز) ، إنهم متلهفون هنـاك لضمها إليهم .

لم يزد (فؤاد) على قوله :

– يا إلهى !!

هتف (أشرف) فى لهجة أقرب إلى التوسل :

– حاول أن تقنعهـا بالبقاء يا دكتور (فـؤاد) .. أرجوك .

لم يفه (فؤاد) بكلمة واحدة ..

تصلبت الكلمات فى حلقه وهو يضع سماعة الهاتف ..

هل سيفقد (نهال) حقًا ؟! ..

هل يضيع الحب الوحيد فى حياته ؟ ..

انتهى فى لحظة ذلك الصراع ، الذى استمر طويلاً بين عقله وقلبه ..

تراجع العقل مندحراً ، وانطلق القلب منتصراً ..

قفز من مقعده ، وقد اتخذ قراره ..

ولم تكد تمضى لحظات ، حتى كانت سيارته تنهب الأرض نهباً ، فى الطريق من الإسكندرية إلى القاهرة ..

كانت عقارب ساعته تقول : إنه لم يعـد أمامه سوى أربع ساعات لاغير ..

أربع ساعات هى الفيصل ما بين النصر والهزيمة ..

ما بين السعادة والشقاء ..

كانت (نهـال) فى هـذه اللحظة تضع حقائبهـا فى سيارتها ، وإلى جوارها وقفت والدتها تبكى ..

لم تكن تبكى الفراق ، فهى سترافق ابنتها فى منفاها الاختيارى ..

ولكنها كانت تبكى ذلك الحزن الذى ملأ ابنتها حتى النخاع ..

(نهال) نفسها كانت تتلكأ وهى تتخذ مقعدها أمام عجلة القيادة ..

دارت عيناها فى كل مكان حولها ، وكأنها تلقى النظرة الأخيرة على وطنها ..

ذلك الوطن الذى شهد مجدها وتألقها ..

الذى شهد حبها وعذابها ..

بدا لها الطريق إلى المطار قصيراً ..

شعرت فجأة أنها تحب زحام الطرق، ورائحة الغبار ..

شعرت وكأنها قلب يغادر جسداً طال التصاقهما سنوات ..

ولكنها لم تستطع أن تتراجع ..

كانت تفر من كل شئ ..

من نظرات التساؤل فى عيون معجبيها ..

من حبها الذى ضاع ..

من أملها الذى خاب ..

لم تبتسم تلك الابتسامة المدروسة ، وهى تعبر قاعة مطار القاهرة ..

لم ترفع كفها بتلك الحركة المدرَّبة ، عندما التفتت إليها الأنظار ..

كانت تحسّ وكأنها لم تعد صاحبة حق فى كل ابتسامات الإعجاب هذه ..

لم يعد من حقها الاحتفاظ بكل هـذا الحشد الذى عشق فنها ..

حرصت على إنهاء إجراءاتها فى سرعة ، وكأنها تسعى للفرار قبل أن تغلبها عواطفها ..

توقفت طويلاً أمام بوابة المنطقة الحرة ..

كانت تعلم أن اجتيازها هذه البوابة يعنى بداية رحلة الهرب ..

لذا فقد تردَّدت طويلاً ..

راجع ضابط المنطقة أوراقها ، ثم نظر إليها ، وقال فى أسف :

– هل ستغادريننا طويلاً يا آنسة (نهال) ؟

أجابته فى اقتضاب :

– عشرين عاماً تقريباً .

أطلق من بين شفتيه صفيراً يشف عن دهشته ، واستنكاره ، وقال :

– هل ستحرميننا مواهبك كل هذا الوقت ؟

أجابته فى حزن :

– لم يعد هناك ما يدفعنى للبقاء فى مصر .. لم يعد هناك من يريدنى إلى جواره ..

فاجأها صوت عميق رصين ، يقول فى حنان :

– من قال هذا ؟

استدارت فى دهشة إلى مصدر الصوت ..

هتفت والدتها فى فرح غامر ، وهى تنظر إلى صاحب العبارة فى أمل ..

ارتجف قلب (نهال) وهى تتأمل ملامحه الوسيمة ، وعينيه اللتين يفيض منهما الدفء والحنان ..

همست فى ذهول :

– (فؤاد) ؟ !

اقترب (فؤاد) منها ، واحتوى كفها بين راحتيه ، وهمس فى رجاء :

– أنا على الأقل أحتاج إلى وجودك ، بل إننى أتمناه وأرجوه .

شعرت بفيض الدموع يتحرر من قلبها ، وينطلق نحو عينيها ، ولكنها عجزت عن النطق ، فاستطرد هو فى أمل :

– (نهال) .. هل تقبليننى زوجاً ؟

أجابته دون أن تنفرج شفتاها ..

أجابته بدموع غزيرة انحدرت من عينيها تؤكد موافقتها وسعادتها ..

أجابته بدموعها ..

وفى هذه المرة لم تكن دموعها باردة ..

كانت دموع التهبت بحب صادق شريف ..

(تمت بحمد الله)

زهور

سلسلة رومانسية رفيعة المستوى

المؤلف

د. نبيل فاروق

السلسلة الوحيدة التى لايجد الأب أو الأم حرجا من وجودها بالمنزل

٤

الدموع الباردة

([illegible] حمدى) أشهر وأنجح نجمة سينمائية فى مصر، وصاحبة الدموع الغزيرة على الشاشة الفضية، لها الآف المعجبين والمعجبات، وجدت نفسها يوما أمام الدكتور (فؤاد)، الرجل الوحيد الذى لم يسمع باسمها من قبل فى مصر بأكملها، لم تحتمل وجود رجل واحد يجهل شأنها، فاندلعت بينها وبينه حرب باردة سالت فيها أنهار من دموع كالثلج ولكن إلى أين تقود هذه الحرب ؟

الثمن فى مصر

ومايعادل دولارًا أمريكيًا فى سائر الدول العربية والعالم